الشيّاح





رواية

إسماعيل فهد إسماعيل



اسماعيل
فهد
اسماعيل

الشياح

روايـة

دار الآداب

الطبعة الثانية
كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨

الاهداء : الى

المسلخ

اسماعيل

على الحائط كتابة بالطباشير :
« هم يريدون الحرب »
والذي كتبهـا
سقط صريعـا

« بريخت »

تقديم

... وأنت تترك شارع الحمراء متابعا سيرك غربا حيث تبدأ الارض انحدارهـا التدريجي يطالعك البحـر الابيض ازرق ، معانـدا ، كبيرا ، ممتدا بامتداد الافق .

احساس صغير يفرض نفسه عليك : « هذا البحر لا يبالي بكل الذي يجري فـي الداخـل »

وعندما تهب على وجهك نسماته برطوبتها ونداوتها ، حاملة رائحـة الماء والسمك ، قد يغامرك الشك في حقيقـة ما يسمى صخرة الانتحار : « انى لمتانة الطبيعة هذه ان تشجع انسانا ما على قتل نفسه ؟ ! »

***

ولعل وجود البحر من جهة ، وبسبب من كون منطقة الروشة سياحية قبل كل شيء من جهة اخرى ، هـو الـــذي نأى بها ان تكون مـسرحا للاشتباكات التي تعاني منهـا مناطق بيروت كافة .

لهذا السبب وذاك ـ وفي الاماسي على وجه الخصوص ـ كنت ترى شلـلا صغيرة مـــن السوّاح ، السعوديين ، والقطريين ، والكويتيين ـ بسياراتهم الفارهة ، المعدودة ـ يتنقلون ببطء عبر مسافة لا يعدو طولهـا الكيلومترين . يسعى كل منهم لئلا يتعرف على الاخر ، دون ان يفلتوا فرصة احساسهم بأنهم ما زالوا يصطافون . وفي لبنان بالذات .



القِسمُ الأوّل



١

□ جاءنا من مركز الارتباط ما يلي :

جميع المنافذ المؤدية الى بيروت ــ ومن دون استثناء ــ غير آمنة ، وغير سالكة

كافة الطرقات في داخل العاصمة غير آمنة وغير سالكة ، بسبب انتشار القنّاصة فوق اسطح البنايات ، ووراء النوافذ .

الاشتباكات بكل انواع الاسلحة ــ ومنها الصواريخ ــ لا تزال تشمل كلا من المناطق الاتية :

الشياح . عين الرمانة . المسلخ . فرن الشباك . سن الفيل . الطيونة .

على الاخوة المواطنين ملازمة منازلهم ، وعدم مغادرتها حتى في الحالات الضرورية ، حرصا على سلامتهم .

اما عن المواطنين المتواجدين في مناطق الاشتباكات فالمطلوب منهم ملازمة الملاجيء ، وعدم مغادرتها اطلاقا ، ولاي سبب كان ...

***

□ سيداتي سادتي : اليكم هذا النبأ السار :

قررت شركة التلفزيون ــ مشاركة منها في التخفيف عن المواطنين

الذين اجبرتهم الظروف الطارئة على البقاء في منازلهم ـ أن تبث برامجها على قنواتها العاملة ، طيلة ساعات هذا النهار ، وحتى ما بعـد منتصف الليل ، حيث يصبح بامكان الجميع قضاء اوقـات ممتعة امـام شاشات التلفزيون ، علما بأن انفراج الازمة بات وشيكا •

والآن نستمع واياكم الى هذا الفاصل الموسيقي •

* * *

امتدت يد بولص الى الراديو الترانزستور ، الموضوع عند قاعدة العمود • صدمته فانقلب •

بقيت الموسيقى الحماسية تواصل خشخشتها لثوان ، قبل ان تهتدي اصابعه المحروقة الى مفتاح الاتصال •

خيّم صمت ثقيل على السرداب ، ساد فترة قصيرة ، تعالت علـى اثرها اصوات الانفجارات في الخارج •

ـ افتح الراديو !•• دعنا نعرف مـا ••

قال حنّا ولم يتمّ ، أزيز أحد الصواريخ يخترق الهواء في اللحظات التي تفصل بين انفجار وآخر ، فيحبس الجميـع انفاسهم بانتظار تحديد مكان سقوط الصاروخ ، سوى همهمة خافتة ، مفزوعة صدرت عن زينب :

ـ « يا رب !! »

قالت وهي تحضن رضيعها على صدرها • تململ جسد الطفل في اللحظة التي دوى فيها صوت الانفجار ، واحس الجميع كما لو ان الارض تهتزّ تحتهـم •

ـ أظنه أصاب المبنى المجاور !

ـ ••••

ومن وسط الظلام انبعث صوت بولص ، رادّا على السؤال الاول لحنّـا :

ـ بطاريات الراديو بدأت تضعف • الاحرى بنـا ان نقلّل من استعمالـه •

وصمت برهة قبل ان يستطرد بصوت معتم :

ـ من الذي يعرف متى ستنتهي هذه الحرب ؟!

ــ ....

ــ لو انهم توصلوا الى تشكيل وزارتهم !!

لكن احدا من الموجودين لم يعقّب بشيء على تساؤل اسعد ، مما دفعه هــو الاخر الى التزام الصمت ، والاكتفاء بمحاولة تحديد اماكــن الانفجارات المتوالية خارجــا .

***

خلال الشهرين الماضيين ــ وعلى الرغم من ان الاشتباكات كانت تشتد بين يوم وآخر ــ لم تتعرض منطقة الشياح الى ما يقرب من الدمار، بل ان الاصابات المباشرة وقعت في اماكن متفرقة ، ومتباعدة الى حد ما ، مما أدّى الى وقوع عدد محدود من القتلى والجرحى بين السّكان .

وفي الحين الذي بدأت فيه تباشير انفراج الازمة تلوح في الافق بعد انصرام الشهرين الساخنين ، يضاف الى ذلك النشاط المكثّف الذي بدأه الرئيس المكلّف من اجل تأليف الوزارة بدعم من بعض قادة القوى السياسية للخروج بالبلد من حالة الحرب الداخلية ، عــاد الوضع المتأزم الى التفجّر من جديد ، ولسبب يبعث على الدهشة .

* شابان عراقيان يتعرضان لفتاة من حيّ عين الرمانة .

* الشابان العراقيان يوجهان الى الفتاة كلمات بذيئة بعدمــا رفضت مصاحبتهمــا .

* الشابان يحاولان اصطحاب الفتاة عنوة واختطافها .

* الفتاة تستنجد .

* دماء الذود عن العرض تتدافق فوارة في شرايين فتوة عين الرمانة .

* الشابان العراقيان ينالان جزاء استهتارهما .

* احد الشابين يصاب بطعنة خطيرة من سكين مجهولة الهوية .

* فتوة عين الرمانة يضعون المتاريس على مداخل الطرق المؤدية الى الحــي تحسّبا للطوارىء .

***

يوم اربعاء من شهر يونيو ٧٥ هو يوم مغامرة الشابين العراقيين .
ومنذ مساء يوم الخميس اللاحق ومنطقة الشياح تتعرض لقصف عنيف ،

مركّز ، بالمدافع والصواريخ ، الى جانب الاسلحة الخفيفة •

* الشياح وعين الرمانة منطقتان متجاورتان •

* العالمون ببواطن الامور افادوا :

ـ الشابان العراقيان لا يد لهما في الامر •

ـ فتاة عين الرمانة بريئة براءة الذئب •

ـ الهدف من تجدد الاشتباكات هو تصعيد الازمــة حد الانفجار ، المؤدي الى حرب اشبه بالاهلية بقصد جرّ الجيش الى موقع غير محايد •

ـ الهدف الابعد من وراء هذه المواجهة المرتقبة هو تصفية المقاومة •

* * *

المتنفذون من عين الرمانة افادوا :

ـ لا يد لنا في القصف الذي تتعرض له الشيّاح ونحن بالمقابل ـ لو تعلمون ! ـ تتعرض لقصف أشدّ •

الشيّاح •• منطقة الفقراء • من شغيلة لبنانييــن وفلسطينيين لم تجد من يتحدث باسمهــا •

* المحظوظون من سكانها ـ فقط ـ هم الذين وجدوا لهم ملاجيء في سراديب بعض بناياتهــا •

وقسم آخر كان لهم حسن توقيت مغادرتها الى القرى قبل تجدّد الازمــة •

٢

هدوء نسبي بدأ يشمل منطقة الشيّاح في الساعة التي تمتدّ ما بين انبلاج الفجر وشروق الشمس .

في داخل السرداب تحولت الاجساد والاشياء الى اشباح غير محددة المعالم ،وفي الخارج كان ركام البنايات اشبه بتلال يلفّها ضباب رمادي اللون .

ــ اظنه دوري !

قال اسعد ، ولم يتلق اجابة ما سوى نحنحة خشنة صدرت عن صدر بولص مما يدل على انه ما زال مستيقظا .

رشقات مدفع رشاش معاند تسمع في البعيد بين حين وحين .

ــ لن اغيب طويلا .

عاد اسعد الى القول ، وانطلق يتلمّس طريقه باتجاه مخرج السرداب .

ــ اسمع !

هتف بولص ، فكفّت قدما اسعد عن المتابعة .

ــ انت تعرف بأن هدنتهم هذه لن تطول .

ــ ....

ـ قد ينهمر عليك رصاص القنّاصة حـال مغادرتك الباب • هم يطلقون النار على كل جسم متحرك •

يستند بصف جسده الاعلى على كومة مواجها محدّثه دون ان يراه•

ـ انحنِ قدر الامكـان • اركض باسرع ما تستطيـع ، وبخط متعـرج •

همهم أسعد ، واستدار •

ـ تلك امور تعلمناها ايام الجيش •

اتمّ بولص محدثا نفسه ، وعاد يستلقي على قفاه في الوقت الذي غادر فيه الاخر ، مخلّفا صريرا خافتا صدر عـن البوّابـة الحديدية للسرداب •

***

أرهف بولص اذنيه •

« لعله وفق في اجتياز الشارع ! »

أذناه لم تسمعا اطلاقات نار قريبة المصدر •

« لو اتبع تعليماتي لعاد سالما ! »

صاروخ ما يحدث انفجارا مدوّيا في البعيد •

« خمس وثلاثون سنة خدمة في الجيش ، ولم تر عيني حربا بمثل هـذه الضراوة ! »

ابتسامة ساخرة تتصاعد الى شفتيه ، تنحشر ضمن حديثه مع نفسه •

« لكني في الحقيقة لم اشارك في اية حـرب •• كنّا اشبه بافراد فرقـة كشافـة » •

وعندما تداعت في ذهنه صورته وهو في بذلته العسكرية ايام شبابه سحب لصدره نفسا عميقا •

« كانت جميع الفرص سانحة لي كي اتزوج »

وتململ في اضطجاعه • الارض الاسمنتيّة تحزّ دفتيه ، وعظـام حوضـه •

« السن ! »

وشيء ما آخر يخزه في جنبه • مدّ يـده • طقـم الاسنان •

تذكّر جوعه ، منذ ظهر امس .
« لو عاد اسعد سالما ... »

***

أمران لا علاقة لاحدهما بالاخر كانا يحيّران بولص .
الاول : هذه الحرب الدائرة ، والتي لا يرى لها تبريرا منطقيا معقولا .
والثاني : الحظ ، سواء في الحياة او الموت .

بالنسبة للامر الاول استطاع ان يتوصل الى قناعة أرضته نفسيّا ، ولو الى أمد . ففي الحين الذي انطلقت فيه الشائعات :

* هي حرب صليبيّة بين مسيحيين ومسلمين .

وقف بولص وقتها حائرا .

« كيف ؟! »

لكن حيرته تلك لم تدم طويلا بعدما تبرّع حنّا الشاب الذي يتلقى دروسه في الجامعة الامريكية موضّحا :

ــ القضية لا تحتاج الى تفكير .

ــ تفكير ؟!

ــ بطبيعة الحال هذه الحرب ليست حربا صليبية .

ــ صليبيّة ؟!

ــ فالكبار من مسيحيين ومسلمين حتى لو تنافسوا على منصب او قيادة او مصلحة .. لن يتذابحوا .

ــ يتذابحوا ؟!

ــ قد تراهم في النهار وهم يتبادلون الاتهامات والخطب ، لكنهم في الليل ..

فيتفتق فم بولص عن ابتسامة كبيرة .

ــ « العرق والمازة »

ــ والمصالحات ، اما نحن الفقراء ..

قال حنّا ، وانشدّ انتباه بولص :

ــ فلا مصلحة لنا بالاقتتال .

ــ هذا صحيح .

ردد بولص ، واكمل :

ـ ... فأنا وامثالي لا نبغي سوى الحصول على لقمة يومنا .

ثم عاودته الابتسامة .

ـ .. والكأس مرّة في الاسبوع ان أمكن .

ـ اراك تفهم بشكل جيّد !

فانعقـد حاجبا بولص ، وتجسّدت الحيرة واضحة في وجهـه ، قبـل تساؤلـه :

ـ ولكن .. لماذا الحرب ؟!!

***

كان هذا الحوار قد دار بينهما قبل شهرين تقريبا ، منذ الايام الاولى للازمة . ساعتها لـم يتردد حنّا عن الاجابة :

ـ اظنك لن تفهم هذه المرة بسهولة لو قلت لك : بأن الصراع الطبقي من جهة ، الى جانب وجود المقاومة ...

فما كان من بولص الا ان رفع كفّه امام وجه حنا .

ـ انا معك .. تلك قضايا يصعب عليّ فهمها ، لكن المهم انـي عرفت : هذه الحرب ليست صليبيّة كما يدعون .

***

اما عـن الامر الثاني : الحظ . فلا يزال بولص يقف امامه حائراً ، على الرغم من كونه يتعاطاه يوميـا .

٣

عندمـا سُرّح بولص من الجيش بسبب كبر سنّه ، مزوّدا بلقب « عريف متقاعد » خصّص له مرتب تقاعدي لا يكاد يفـي ثمـن العرق الذي اعتاد على شربه في بار مكسيم مساء كل يوم سبت مذ كان شابا .

ولانه بدأ يعاني من احساس حاد معذّب بالبطالة فقد ازدادت رغبته للشرب ، وكذا حاجته لدخل آخر يضاف الى مرتبه .

في البدء مارس مهنا صغيرة تحتاج الى رأسمال صغير ، بيد ان ساعات تجليه في بار مكسيم ــ وهي كثيرة ــ كانت ــ دائما ــ تأتـي على رأس المال المستلف وكذا ربحه الضئيل ، فكان ان اخذ ــ منذ سنة تقريبا ــ بنصيحة جاره اسعد، واحترف بيع تذاكر اليانصيب ، فمثل هذه التجارة لا تحتاج اي رأسمال .

خلال الاشهر الستة الاولى لتعاطيه هذه المهنة صادف الحظ ثلاثة من الذيـن باع لهم ، فربحوا مبالـغ معقولة ، ولكنهـا بالنسبة اليه كانت خيالية ، وبسبب من التعب المستمر الذي تتطلبه مهنته ، حيث يتحتّم عليه ان يذرع شوارع بيروت مناديا على بضاعته :

ــ السحب يوم كذا ...

قرر بينه وبين نفسه ان يضع حدّا لتعبـه ذاك ، ولكـي يقضـي شيخوخة مطمئنة ، وينعم ببحبوحة من العيش ، احتفظ لنفسه ببطاقـة

اختار رقمها بعد تردد طويـل •

ولمّا لم يصادفه الحظ في تلك المرة ، غامر واحتفظ بعشر بطاقـات في المرة الثانية ، ممـا اضطره في الاسبوع الـذي تلا عمليـة سحب البطاقات الى الغاء سهرة امسية السبت ، وكذا مع السبت اللاحق ، الى جانب تنازله عـن الكثير من الضروريات المعاشية ، وتعليقا على هـذا الحادث قال لـه اسعد ضاحكا :

ــ انت تبيع الحظ ، لكنك لا تقتنيه •

بولص ــ ساعتها ــ شارك اسعد ضحكه ، على الرغم من كونه لم يهضم ما قيل له ، بيد انه وفق الى الاستفادة من هذه المقولة للخروج من مأزق صغير تعرّض له ذات يوم في شارع الحمراء •

كان الوقت عصر يوم سبت ، وبولص بأمس الحاجة لان يبيـع ، ممـا اضطره للتشبث بأذيال شاب أنيق قائلا بما يقرب من التوسل :

ــ اشتر تربـح !

فتوقف الشاب عن متابعة سيره •

ــ أأنت واثق بأن بطاقتك هذه سوف تربح ؟

ــ اي واللـه !

فافتر فم الشاب عن ابتسامة واسعة •

ــ احتفظ بها لنفسك اذن •

لم يفغر بولص فمه دهشة •

ــ انا ابيع الحظ ، ولا اقتنيه •

أجاب برباطة جأش تناسب المقام ، وانفلت مبتعـدا عـن الشـاب بخطوات واثقـة •

***

اما عن امر الحظ مع الموت ، فذلك ما يحيره اكثر من سواه •

ظهر امس الاول اشتدّ العطش بالمتواجدين داخل السرداب ، فقنينة الماء التي استولى عليها اسعد في الفجر من حانوت البقالة الذي في طرف الشارع نفدت منذ الضحى ، وعويل الطفل الرضيع ــ ابن زينب ــ يحزّ في القلب • عندها وقف حنّا فجأة قائلا بتصميم :

ـ سأخـرج !
فتساءل بولص مندهشا :
ـ في مثل هذا القصف ؟!
بينما تعلقت عينـا زينب بوجهـه من غير ان تنبس بحرف .
عينا امه مارسيل اغرورقتا بالدمع حال مغادرته الباب ، ولم تجد شجاعة على النظر من النافذة التي في أعلى جدار السرداب الى الشارع . بولص كان ـ كما هي العـادة ـ قد نصحه قبل خروجه :
ـ انحنِ قدر الامكان . اركض ما تستطيع ، وبخط متعرج ..
ثم اضاف بصوت خافت :
ـ تلك امور تعلمناها ايام الجيش .
***
من الشارع تعالت اصوات زخات رصاص القنّاصة ، ومـا ان عاد عـاد حنا حتى احتوته مارسيل بين ذراعيها غير مصدّقة ، وجهدت زينب في ان تمنع نفسها عن احتضانه ، وهو المسيحي ، فقبّلت منه كتفه .
ـ « يخليلك شبابك !! »
كان يحمل قنينة ماء سالمـة .
ـ أنت واثق بأنك لـم تصب ؟!
تساءل بولص بصوت راعش .
ـ لا .. لم ..
اجاب حنّا بسعادة . فتنفس بولص الصعداء . كان بلا اولاد .
***
وبالمقابل هناك البناية التي شهد بولص انهيارها ظهر امس ، مـن نافذة السرداب .
البناية تتألف من طوابق اربعة . تقع عند الزاوية اليمنى من الجانب الثانـي للشـارع .
صواريخ لا يعلم بولص عددها انهالت على البناية ، فتداعت .
اسعد صرخ :
ـ انظـروا !!

جدران باكملها كانت تتفكك لتتهاوى مصدرة دويا هائلا لـدى سقوطهـا •

المجتمعون وراء نافذة السرداب حبسوا انفاسهم • الغبار الـذي تصاعد من جراء الانهيارات لفّ البناية من جوانبها كافة •

ـ اظنها بلا سرداب !

تساءل اسعد ، فأجابه حنّا :

ـ بل هي بسرداب كبير يضمّ اكثر من خمسين •

ـ ترى •••

قال أسعد وصمت لحظة •

ـ ••• هل بمقدور سقف ذلك السرداب مقاومة ثقل الانهيارات ؟!

ـ •••••

سؤال اسعد بقي معلّقا دونما اجابة ، وظلت عيـون الجميع ـ مأخوذة ـ باتجاه الغبار •

الغبار بعد حوالي دقيقة انجلى عن جسد واحد ، شوهد وهو يبذل جهدا كـي يقف على قدميـه •

ـ اظنها امرأة !

قالت مارسيل •

ـ هي ••• على ما اعتقد ••

لكن رشقة رصاص من مدفع رشاش مجهول المصدر قذفت بالجسد المتهالك الى عرض الشارع ، كما الخرقة البالية ، فوضعت حدّا حاسما لحدس زينب ، واطلقت في الوقت نفسه صرخة هلعـة من قـاع حنجرة ابنتها الكبرى فائزة •

* * *

ـ اذن ••

ولم يجد حنّا كلمة اخرى يضيفها • اكداس الجـدران الهائلة لم تتمخض عن حيّ ثان • وجسد المرأة بقي ممزقا في عرض الطريق •

« والآن ! »

غمغم بولص لنفسه بمرارة ، عيناه مثبتتان على السقف الواطىء •

« .. ما هي نسبة حظ اسعد في ان يعود سالمـا ؟! »

الاخرون لا يزالون ينامون ، او لعلهم يتظاهرون بالنـوم .. سقف السرداب مليء ببقع ملحية مشوّهة الزوايا .

« وما صدر عن اي منهم اقتراح : حلّ دورك للخروج يا بولص »

احس بجفاف مُر في شفتيه . مدّ لسانـــه ، ومرره عليهمـا . طعم النيكوتين ينتقل من شعرات شاربه الكث الى لسانه .

تذكر أمرا غاب عن ذهنه .

« لو اني قلت لاسعد : اذا صادفتك علبة سجائر .. »

٤

* في الليـــل :

كانت حصيلة اشتباكات يوم امس حوالي المائة من القتلى ، واكثر من ذلك جرحى ، واليكم قائمة بأسماء القتلى :

« احمد محمد علي (فلسطيني) . محمود عبدالله (طفـل فـي الرابعة .. فلسطيني) آكوب ارتان (كهل ارمني .. لبناني الجنسـية). سناء سالم (صبية في العاشرة .. فلسطينية) أياد سالم (اخوها .. في الثالثة) . طارق .. فلسطيني .. فلسطيني .. فلسط .. فل ..

* وفي النهــار :

بعد العديد من الاتصالات المكثّفة جرى التوصل الى اتفاق يقضي بوقف اطلاق النار بدءا من الساعة الرابعة مساء ، على ان يجري الالتزام به من جانب جميع الأطراف المتنازعة .

هذا .. وقد صرح مصدر مسؤول بما مفاده :

قيادة المقاومة عاجزة عن السيطرة على بعض فئاتها غير المنضبطة ، مما أدّى الى استمرار حالة التوتر حتى الآن .

***

في البدء كان الفزع المستوفز . واحس اسعد كما لو انـه يعيش

اللحظات الاخيرة لحياتــه .

ماذا لو انه عاد وقطع الخطوات المعدودة التي باتت تفصله عن باب السرداب !

« انا آسف ! .. لا استطيع المواصلة .. اظنني سأصاب بالاغمــاء بعــد ثــوان ! »

كفّه اليمنى ستكون محتضنة للجانب الايسر من صدره ، ويتم :

« انا متعرّض لاصابة وشيكة بنوبة جديــدة في القلب ، اظنهــا اقوى من سابقتهــا »

حينئذ سيجدون من يبعثونه نيابة . بولص مثلا . وسيجدون ايضا العذر المقنع له . حنّا . امه مارسيل . بولص . واخيرا زينب ... خاصة وان الجميع يعرفون بأمر النوبة القلبية التي تعرّض لهــا قبل شهر .

« هل أعــود ؟! »

لكنه سرعان ما تذكّر ما يحسم له تردده . وراءه في السرداب ــ ما زالت فائزة ــ ابنة زينب ــ تنام الى جانب امها . مراهقة في السادسة عشرة . جسدها الشاب المتفجر لا ينبىء عن سنّها الحقيقية . لو كانت تفهم الشعر ، لكتب لها قصيدة غزل ساخنة وحسم امرها ، اذ انها جديرة بمغامــرة جديدة .

زمام الامر لا يزال في يده . بقاؤهما في السرداب ــ هكذا ــ ولو ليومين قادمين ، وربما اكثر ، سيزيد من رفع الكلفة ، وعودتــه فارغ اليديــن ...

« النوبة في قلبي ! »

سترجح من كفّة حنا ــ منافسه الخطير ــ على كفته ، لان حنا سيهتف دونمــا ادنى تردد :

ــ انا اذهب .

بل اسعد هو الذي سيذهب ، ولن يسمح ..

بعدها تذكر امرا غاب عن ذهنه بسبب من حماسه المنفعل .

« هذا فيمــا لو عدت حيّا ! »

***

وهو يجتاز الطريق راكضا بجسد مقوّس دوى انفجار صاروخي في مكان مـــا بعيد ، مما أدى الى اختلال توازن اسعد ، وتعثّر قدميه بالارض ، فما كان منه الا ان وازن ما بين فزعه واندفاعه بصرخـة حاقدة اطلقها في داخله ، بأعلى صوته :

« اللعنة عليكـم !!»

***

مظهره الجسماني لا يدل على سنّه ، شأنه شأن فائزة معكوسـا •

ففي الوقت الذي تبدو فيه فائزة اكثر شبابا وتفجّرا ، يبدو أسعد اكثر كهولة على الرغم من انه لم يتجاوز الثالثة والثلاثين بعد •

قامة طويلة • مقوّسة بشكل يلفت النظر عند الكتفين • تستند الى ساقين مقوّستين ايضا •• رفيعتين ، الى جانب رأس صغير نسبة الـى الجبهة العريضة التي تتقدمه والتي لا تني تنمّ عن صلع مبكر ، وعينين متعبتين ، يجهد اسعد في اخفاء حاجتهما الماسّة الى عوينات طبيّة ، ليس ازاء الآخرين حسب ، فزوجته على الرغم من الحاحها الساخط والمستديم فـي الوقت ذاتـه :.

ــ قراءة الشعر لا تطعم خبزا !!

لا تعلم مدى الجهد المضاعف الذي يبذله ســـواء في القراءة ، او الكتابـة •

ولو انها لم تذهب بصحبة اولادهما الثلاثة لزيارة اهلها القاطنين في منطقـة الجامعة العربية صبيحة يوم بدء الاشتباكات الاخيرة مما اضطرها للبقاء هناك ، لولا غيابها هذا ، لمنعته ــ كما يجزم ــ عن مغادرة السرداب ، قائلـة بصوتها الرجولي الآمر :

ــ اقعد انت ! •• انا اخرج !

وسيكون منعها له ليس نتيجة لخوفها عليه ، او تضحية من اجله ، وانمـا بسبب ايمانها الراسخ بعدم قدرته على الاتيان باي عمل مثمر •

***

عام ١٩٦٤ اكمل اسعد دراسته الجامعية (اجتماع) من جامعة عمان ــ الاردن ، عاد بعدها مباشرة الـى مسقط رأسـه نابلس ، حيث عيّن

مدرّسا في مدرستها الثانوية ، وبعد شهرين تاليين زوّجه ابوه من ابنة عمه جميلة . ساعتها لم يجد اسعد الجرأة كي يقف في وجه ابيه ليقول :

ــ جميلة تكبرني باربعة اعوام !!

فالفتاة كانت مسمّاة باسمه مذ كانا طفلين ، ومذ كانا طفلين وجميلة تستطيع في اي وقت تشاء ان تظهر لاسعد تفوقها العضلي والنفسي .

ــ أنت رجل بيـت ؟!!

تساءلت بسخرية مرّة في الايام الاولى لخطوبتهما ، على اثر فشله في العثور على بيت يستأجرانه ، قصد السكنى فيه بعد الزواج .

وعلـى الاثر سمحت لنفسها بتسلم زمـام امورهمـا كافّة دون الرجـوع اليـه .

من جانبه لم ير مبررا لرفض زعامتها ، ووجـد تعويضا في بحث صابر جاد ــ لم يكلّل بالنجاح بعد ــ عن علاقة اخرى بديـل ، بامرأة جميلة مـا ، تستطيع ان تجسّد له احلامه العاطفية ، وتكـون ــ فـي الوقت نفسه ــ متنفسا حقيقيا لطموحاته الشعرية .

***

في حزيران ١٩٦٧ اضطر مع من اضطرهم الاحتلال الـى مغادرة الضفة الغربية ، ليستقر به المقام ــ نتيجة لعلاقات عائلية ــ في بيروت ، حيث وفق للالتحاق بالعمل لـدى احدى دور الصحف كمحرر للشؤون الادبيـة .

وفي بيروت وجد متنفسا جديدا للطاقـة ، فانخرط متطوعا فـي احدى التنظيمات الفدائية ، ليطرد منها بعد اشهر بتهمة السعي لخلق تكتّل سرّي مستقل داخل صفوف شباب التنظيم .

ساعتها لم يجد أسعد بأسا في طموحه الذي كان ينزع الى الزعامة ، ودافع عن وجهة نظره بقولـه :

ــ ما كنت أهدف لخلق تنظيم سري ضمن التنظيم،بل كنت اهدف لخلق انسان عربي ، فلسطيني ، عقائدي ، مقاوم ، وواع .

لكن وجهة نظره تلك لم تجد صداها المناسب لدى ايّ من المقربين اليـه ، ومن ضمنهم جميلة زوجته ، التي قالت له يومها باحتقار .

ـ انت غبـي كبير !

فلم يوفق ازاء نعتها ذاك الا ان يردد بهمهمـة يصاحبهـا احساس بالخـزي :

ـ الله يسامحك !!

***

ـ الله يسامحك !!

رددها بحزن حقيقي في المرة الثانية ، عندما منعته جميلة عن مغادرة المنـزل ، بقصد الذهاب لمزاولة عمله المعتاد في الصحيفة .

ـ ما منعتك عن الخروج لرغبة في نفسي ..

قالت ، واتمت اثناء انصرافها لاداء شأن اخر من شؤون المنزل :

ـ ..وانما ليقيني بانك ستتسبب لنفسك بموت اعتباطي ، لا مبرر له!

كان ذلك اثناء اشتداد احدى الازمات التي غـالبا مـا تنشب بين المقاومـة والسلطـة .

***

« لو ان جميلة هنا .. »

« ـ اقعـد ! »

« أمّا وهي غائبة .. »

حيرة قاتمة . حزن بطعم الغربة . لعلّ حياته اقترنت بوجودها عبر منعها له عن الخروج ، وغيابها سيؤدي به الى ميتة اعتباطية لا مبرر لها .

خرج من السرداب . طعام . ماء . مات . اصابته رصاصة طائشة .

« الرصاصة الطائشة تؤدي الى موت طائش »

لو كان في الثمانين من عمره . في السبعين ، في الستين ، فـي الخمسين على الاقل لهان امر الموت ، اما وهو في المستهلّ ..

« هذا امر مرفوض !! »

وعلى الاخص الآن ، حيث لم تتوفر له فرصة الانتهـاء مـن وضع اللمسات الاخيرة على ملحمته الشعرية المطوّلة ، التي بدأ العمل بها منـذ اكثر من سنتين .. « البحث عن الحقيقة » والتي ينتظر لها ان تحـدث

دويّا هائلا ، ليس في صفوف الفلسطينيين وحدهم ..

***

غبش الفجر يتكشف رويدا رويدا عن الدمار الذي حلّ بمنطقة الشيّاح .

اكداس متطاولة من الاسمنت والطوب والحديد والاثاث المحطم والاواني ، اختلطت ببعضها البعض .

الرياح الرطبة تحمل طلائع من روائح نتنة تكاد تزكم الانف .

« اظنه عفن الجثث ! »

حركة صغيرة . فتوترت عضلات اسعد ، وتجمّد الدم في عروقه ، قبل ان يجرؤ على الالتفات . كلب ضال يدس بوزه وسط الركام .

« هش ! »

الكلب يقفز مبتعدا . الطرقات مقفرة اقفارا تاما . لا بد من وجود الكثيرين من الاحياء في سراديب البنايات الكبيرة ، او تحت الانقاض .

أرهف اذنيه . اطلاقات متلاحقة لمدفع رشاش يتجاوب صداها على البعد .

« يجب ان اسرع ! »

عند الركن الاخر من زاوية الشارع حانوت بقالة « التسامح » . في اليوم الاول للاشتباكات كان الحانوت مقفلا ، وفي اليوم الثاني تعرّض لهجوم مباغت من جانب بعض سكان السراديب .

الحاجة الانسانية الماسّة الى الماء والطعام . الاقفال كسرت ، والباب بقي مشرّعا .

اول امس وفق اسعد في الوصول الى « التسامح » ، وجد فيه ما يزيد عن الحاجة .

٥

تسمّرت قدما أسعد أمام باب حانوت التسامح • حاجباه ينعقدان بدهشة رافضة • الرفوف خاوية تماما ، وعلى الارض تناثرت بضعة صناديق خشبية محطمة ،الى جانب اكياس وعلب فارغة •

« سكان السراديب اتوا على كل الذي فيه ! »

اطلاقات المدفع الرشاش تقترب •

« لعلها سيارة جيب ! »

أحنى ركبتيه قليلا • وبقفزة واسعة اصبح وسط الحانوت •

فأر كبير ينفلت من بين قدميه •

« اللعنة !! »

واستلقى على بطنه • نثار الزجاج • العلب ••• في الوقت الذي اقترب فيه صوت اطلاق الرصاص •

ضجيج محرّك • رشقات متلاحقة من الرصاص • صرخة امرأة • مرور سيارة جيب مسرعة ، خيّل لاسعد بأن هيكلها كان بلون العشب الجاف •

* * *

انتظر قليلا قبل ان يزحف خارجا • هل يبحث عن مصدر الصرخة •

« ــ انت غبي كبير ! »

ليس وقتها • المهمة التي خرج من اجلها أولا • شحذ افكاره محاولا رسم خريطة للمنطقة في ذهنــه •

حوانيت البقالة ترفض الظهور بوضوح ضمن معالم خريطته الذهنية فــي البدء •

***

نهض على قدميه بعدما تأكد ــ ضمن خريطته المتخيلة ــ من وجود حانوت للبقالة كبير ــ ببابين ــ يقع وراء المنعطف الذي الى يساره •

« لعله لم يتعرض لنهب كلّي ! »

وعندما أطلّ برأسه ناحية الطريق المتفرعة يسارا ، تملّكته الدهشة ، فكتم انفاســه •

« من هنا جاءت الصرخة اذن ! »

امرأة وسط ، شعثاء الشعر • تستند متهالكة على الجدار غير بعيد عن باب الحانوت • يدها تلمّ أحشاءها • شاب صغير السن يقف قبالتها مشدوها ، مضيّع النظرات ، وفي الوقت نفسه هناك شابان آخران كانــا يعالجان بعجالة مضطربة اقفال باب الحانوت •

***

الشبّان الثلاثة لم يصحبوا المرأة معهم في طريق عودتهم ناحيــــة سرداب البناية الواقعة في الطرف الآخر للمنعطف •

اصغرهم ــ وحده ــ تلكأ برهة امام الجثمان الذي سرعان مــــا تداعى علــى الارض •

اسعد ــ ايضا ــ لم يتلكأ طويلا في وقفته • وانطلق راكضا باتجاه الباب المشرّع للحانوت •

الشبّان لم يستولوا على الكثير • الرفوف مليئة بالبضائع • وقف في الوسط حائرا • به رغبة لان يستولي على كــل شــيء ، بدءا مــن القناني البلاستيكية للمياه المعدنية ، وانتهاء بقناني الوسكي الاجنبي •

ولم يستطع حبس الابتسامة الواسعة التي تفتّق عنها فمه •

« ليس وقتهــا ! »

كان قد تخيّل اندهاش كل من حنّا وبولص وهم يرونــه داخلا

بزجاجات الوسكـي •

« ـ انت مجنون !! »

« ـ بل اكثر !! »

« ـ من اين جاءتك هذه الفكرة الشيطانية ؟! »

وسيضحكون ، او يغضبون ، لا يدري ، ولكن •• اليس الاحرى بهم وسط هذا السجن القبوي ـ الذي لا يدري اي ّ واحد منهم حتـى متى ستمتد بهم الايام فيه ـ ان يقضوا وقتا ممتعا • ما احلى ان سكروا ـ بكل ما لديهم من قدرة ـ وسط كل هذه الانفجارات •

وبولص ••• ترى هـل سيستطيع منـع نفسه ان يرقص احتفاء وفرحـا ••

« لكن ! •• »

وتذكّر أسعد فائزة ، قبل ان يتذكر امها بنظراتهـا الصارمـة • فزّم شفتيـه حانقا •

***

اختار من بين الاكياس كيسا ورقيا متينا ، وكبيرا في الوقت ذاته •

قناني مياه اربع • لا •• بل ثلاث ، والاّ فسوف يمتلىء الكيس بها دون سواها ، والافضل •• قنينتان • ست علب خضار منوعة •

ثم فكّر برهـة •

خبز •• خبز •• اللعنـة !! •• هـو متعفن مـن جرّاء التخزين والحـر •• « البسكويت » يفـي ببعض الغـرض ، لكنـه يسبب العطش • اذن فقنينة مـاء ثالثة •

وهو ينحني ليتطاول القنينة البلاستيكية صدرت عنه التفاتة الـى رفّ قريـب •

« السجاير !! »

الفرحة اكبر من ان تدع فسحة للتفكير • تناول مجموعة من العلب ، ودسّهـا في جيوبـه •

« الثقاب مهـم ! »

الملح •• غير مهم • السكر •• غير مهم • الرز •• من يتولـى

طبخه ؟! •• طحيـــن •• لا •• « مكرزات » •• ليس وقتها • كانت الابتسامة قد عادت الى فمه • المزيد مـــن المعلبـات افضل • وعلـى الاخص اللحـــم •

* * *

قامته تنحني اكثر مع ثقل الكيس الكبير الذي يستند على وسطه •

« سيجنون فرحا ! •• سيأكلون ويشربون ، و •• »

ثم التمعت في رأسه فكرة خاطفة •

« ويسكرون لو اخذت هذا ! »

اقترب بحمله من الرف المقابل •

« الآن ! »

وبحذر شديد فتح اصابع يده اليمنى ، دون ان يغفل عـن اسناد الكيس • عنق زجاجة الوسكي يستقر ــ باردا ، ناعما ــ في باطن كفّه • اطبـق اصابعـه بقـوّة •

« لا فائزة !! »

ساخرة لا مبالية ترددت في داخلـه •

« لا امها !! »

وفتح اصابع يده اليسرى ، من اجل ان يطوق بهـا عنق زجاجـة اخـرى •

« ولا بطيـخ !! »

الزجاجتان تصادمتا ، فاصدرتا صوتا محببا الى اذنيه ، سرعان مـا ضاع وسط دوي انفجارات صاروخية قريبة •

« نهر الحرب بـدأ »

* * *

وهو يركض عائدا باتجاه السرداب ، حانت منه التفاتة خاطفة ناحية المرأة التي مـا زال جسدها ينزف كما ذبيحة العيد ، فردد مع نفســه قانعـــا :

« كان الاحرى بها ان تنبطح أرضا ، وتتظاهر بالموت لدى سماعها صوت محرك السيارة ! »

٦

❋ بيان اعلامي صادر عن قيادة المقاومة :

« ورد في تصريح لاحد المسؤولين ما مفاده : ان قيادة المقاومة عاجزة عن السيطرة التامة على بعض فئاتها غير المنضبطة .

ونحن اذ ننفي هذا الخبر نفيا باتا وقاطعا ، نرغب ان نلفت انظار ابناء امتنا الى ان الغرض الكامن من وراء مثل هذه التصريحات غير المسؤولة هو استغلال طبيعة الظروف الراهنة ، بقصد تهيئة الجو الملائم لبذر اسباب الشقاق والخلاف بين صفوف طلائع شعبنا المناضل في سبيل وجوده ووطنه .

ونرغب كذلك بطمأنة الجميع الى ان فصائل المقاومة كافة ، ما زالت وستبقى منضوية تحت لواء قيادة منظمة التحرير ، وان مثل هذه الاكاذيب والاشاعات ... »

* * *

❋ جاءنا من مركز الارتباط ما يلي :

تردنا الكثير من الشكاوى والاستفسارات ، وعلى الاخص من المواطنين المتواجدين في مناطق الاشتباكات ، يتساءلون فيها عن اسباب انقطاع التيار الكهربائي عنهم ، وكذا امر الاتصالات التلفونية ، التي

جانب عدم توفر المياه الصالحة للشرب من جهة ، وندرة المواد الغذائيـة مـن جهـة اخرى •

وبطبيعة الحال فان الوضع غير العادي الذي يمر به هذا الوطن هو السبب في ذلك • اذ ان مصادر المياه ، ومحطات الكهرباء قد تعرضت لقصف مبكر منذ الايام الاولى للاشتباكات الاخيرة ، علما بان استمرار هذه الاشتباكات سبّب عجز العمال المهيأين لاصلاح العطل عن الوصول الى الاماكـن المعنية ، وكذا الحال بالنسبة لرجال الاطفاء والاسعاف ، ونحن اذ نطمئن المواطنين الى ان الجهود الخيّرة ما زالت تبذل ، وعلى كافة المستويات ، من اجل انهاء الازمة ، ووضع حد لاقتتال الاخـوة ، نهيب بهم ، ونطالبهم بالمزيد من الصبر والصمود داخل الملاجيء •

***

كانت الحياة قد دبّت بين نزلاء السرداب بعد مغادرة اسعـد لـه بدقائـق •

ــ صباح آخـر !!

همهم بولص بضيق ، وتلمس باصابعه مفتاح المذياع الترانزستور ، في الحين الذي تمطى فيه حنّا ، وتثاءب بنفس طويل •

ــ كم هي الساعـة الآن ؟

لكن احدا من السامعين لم يجب على تساؤله •

ــ اسعد خرج قبل قليـل •

قال بولص بلهجة اخبارية ، لا تخلو من احساس بالعطف ، وتقلّبت زينب فـي مكانهـا •

ــ يوم خير ان شاءاللـه !

وامتدت يدها الى جسد ابنتهـا •

ــ فائزة !

ــ ••••

ــ فائزة !

ــ همـم !!

اجابت الاخرى بضيق مـن بين شفتيها المطبقتين ، واتقلبت علـى

قفاها ، مما اضطر الام الى اعادة الثوب بعدما انحسر عن فخذي ابنتها .
ــ كفاك نومــا !!
قالت مؤنبة ، واضافت محدثة نفسهــا بصوت يعلــو على الهمس :
ــ هذه البنت تنــام كبقرة !
بينمــا نهض بولص من مكانه ، شاقـًا طريقه الى الركن القصي ، ناحية الباب ، بخطوات مرنة ،خفيفة ، على الرغم من تقدمه في السن ، فتساءلت مارسيل بصمت عن السبب الذي من اجله لم يزود مالك البناية سرداب بنايتــه بدورة ميــاه على الاقــل .

***

يقع مدخل السرداب عند ناصية السلم المؤدي الــى الدور الثاني .
درجات اسمنتية ، يربو عددها على العشر ، تنتهي بفسحــة صغيرة مربعة ، ذات بوابة حديدية ، صدئة ، تفضي بالداخل عبرها الى ردهــة واطئــة السقف ، مستطيلة ، تمتد بامتداد مساحة ارض البناية .
ذلك هو « المخبأ السرداب » ، عشرون مترا طولا ، واقل من نصفها عرضا ، بينما لا يكاد يزيد ارتفاع السقف على المترين .
وبطبيعة الحال كان بامكان المتواجديــن في السرداب ان ينعموا بكمية من الهواء اكثر ، وكذا عن الضوء ، لو ان مالك البنايــة زود سردابها بأكثر من نافذة . بيد انه على مــا يبدو لم يضع فــي اعتباره حالات الحرب ، فاكتفى بأن فتح في جدار السرداب نافــذة صغيرة واحدة ، توازي بقاعدتهــا ارض الشارع ، بعدمــا زودهــا بمشبك حديدي متيــن .
كذلك كان بامكان هؤلاء المتواجدين ان يتحركوا داخل السرداب بحرية اكثر ، لو ان ذلك المالك لــم يتخذ من سردابه مخزنا دائما لخليط من البضائع (ادوات صحية خاصة ببناء وصيانة الحمامات) والتي يتعاطى بيعهــا في دكانــة يمتلكها ضمن احدى بناياته في حــي عين الرمانة ، حيث يسكن هــو .
لهذا السبب ترى السرداب وقد ازدحم بصناديق خشبية مختلفــة الاحجام ، ترتفع حتى تلامس السقف ، عدا مساحــة صغيرة تقع تحت

النافذة ، تتصل بممر ضيّق متعرج ــ يمرّ من بين الصناديق ــ يؤدي في نهايته الى البوّابـة .

ولان المساحة التي لا تشغلهـا الصناديق ضيّقة صار لزامـا على الجميع ان يتماسوا ــ سواء في النوم او الجلوس ــ مـمـا اضطر الام « زينب » للتفكير بأمر ابنتها فائزة .

« هي شابة صغيرة رعناء . حنّا ايضا شاب . وضع البنـزيـن قرب النـار .. »

اما عن مجرى افكارها تجاه اسعد :

« هو بعينين متلصصتين ، ووضع الشاة قرب الذئب .. » فكان ان هداها تفكيرها الى حشر جسد ابنتها فيما بينها وبين الصناديق .

ــ ستنامين هنـا !

ــ المكان ضيّق !!

ــ واسـع .

ــ الصناديق تحزّ خاصرتي !!

ــ اخرسي !!

ــ ....

وعلى الرغم من كل تلـك الاحتياطات فأن عيني اسعد بالـذات كثيرا مـا تتلصصان ، قصد التطلع الى اجزاء مكشوفة من جسد فائزة ، فالاخيرة كثيرا ما تضطر خلال ساعات النهار الى الاضطجاع او النوم ، بسبب من التعب او الملـل .

« محنة وتنتهـي ! »

ذاك ما تصبّر به زينب نفسها . لكن ايام المحنة طالت ، وامتدت ، وصبر زينب بدأ ينـفد .

هي لا تدري الى من توجّه اهتمامها ، الى الصغير ياسر ابـن السنتين ، والذي لا ينِي يعول ما دام مستيقظا ، أم انها تضع في ذهنها ضرورة مراقبة تصرفات ابنتها الطائشة ، التـي لا تتورع عـن تبادل الابتسامات المغرية مع حنّا من جهة ، ولا تبدي حرصا ــ ولو قليلا ــ في الاحتشام ازاء مراقبة اسعد لها من جهة اخرى .

يضاف الى كل هذا تفكيرها رقلقها المتواصلان حول كيفية توفير الماء والطعام لها ولولديها ، علاوة على فزعها المقيم من احتمال نفاذ احد هذه الصواريخ المنهمرة حولهم ،من النافذة الصغيرة للسرداب الى حيث يحتمون ، فتكون النهاية .

« وابراهيم .. »

تردد في داخلها بيأس ، وغصة الحزن تطبق على حنجرتها .

« لا يدري ! .. ولا يسأل !! »

لكنها ــ مع نفسها ايضا ــ سرعان ما تجد لزوجها العذر .

٧

عمر زينب يتجاوز الخامسة والثلاثين ، لكـــن مهـام البيت غير المحدودة ، مع الحمل والولادة ، وتنشئة ولديها ، وكذا مسؤولية تربية فائزة وتوجيهها ومراقبتها نتيجة لغياب ابراهيم ــ الذي يكاد يكون دائما ــ بسبب طبيعة عمله كسائق شاحنة لنقل الخضار والفواكـه مـا بين لبنـان والكويت .

هذه العوامل مجتمعة ملأت شعر رأسها بالشيب ، وحفرت وجهها بالتجاعيـد .

ــ الا يمكن لجسدك هذا ان يمتلىء قليلا ؟!

تساؤل مندهش لا يخلو من سخرية غير حاقدة ، طالمـا همس بـه ابراهيم في اذنها وهو يتحسس جسدها اثناء الليالي القليلة التي قاسمها فيهـا فراشهـا .

ــ السمنة لا تأتي الا مع راحة البال .

فكان يبتسم ازاء اجابتها الحزينة ، ويضيف باعتداد ابوي حنون :

ــ انظري الى ابنتـك فائزة !

ــ هي خاويـة الرأس !

يضحك بسعادة ، ويحتضنهـا .

ــ غدا يأتي الينا ابن حلال يطلب الزواج منها .

يقول « الينا » وينسى بأننا لا نراه سوى ايام معدودة في العام .

« ترى اين هو الآن ؟ !•• وفي اية ارض ؟! »

***

ابراهيم ـ قياسا بها ـ يعرف الكثير عن الحياة ، وله قدرة كبيرة ـ نسبة اليها ـ في فهم الكثير من القضايا المستعصية على فهمها ، السياسية منها بوجه خاص •

ـ هم يهدفون الى ترحيلنا عن لبنان •

قال لها ذات ليلة ، مشيرا الى قصف مخيمات اللاجئين بالطائرات على اثر ازمة داخلية •

ـ من هم الذين يهدفون الى ترحيلنا عن لبنان ؟!

سؤال كبير ألحّ عليها في حينها ، كان ذلك قبل سنوات : وتذكر بانه بدأ يجيبها بأجابة لم تستطع اقناعها بشكل كامل •

فالطائرات التي هاجمت مخيمات اللاجئين بضراوة غير عادية ـ في تلك المرة بالذات ـ لم تكن طائرات اسرائيلية •

فتداعت على لسانها قناعتها :

ـ اليس المفروض بتلك الطائرات ان تلقي قنابلها على الاسرائيليين ؟!

ـ •••••

حيرته تجسدت في صمته لثوان • لكنه بسرعان ما وجد متنفسا لها :

ـ لانهم يخافون منا اكثر من خوفهم من اسرائيل •

هل تقتنع ؟!

ـ من هم الذين يخافون منا ؟!

ـ •••••

ـ •• ان كنت تعني اللبنانيين : بولص وحنّا ومارسيل وجورج ، وسواهم ، فنحن نعيش معهم •• بينهم، بسلام ، منذ ما يقرب من الثلاثين سنة ؟!!

وقبل ان تدع له فرصة الاجابة على جملة تساؤلاتها ، رددت بانفعال رافض :

ـ ••• ولماذا يخافون منا ؟!

الضيق يتجسّد على وجهه ــ هذه المرة ــ بدلا من الحيرة ، وضع عينيه في عينيها .

ــ انت لا تدعين لي فرصة توضيح اجابتي !!

ــ .....

ولما لم ترد عليه بشيء مخافة اغضابه اكثر ، اطلق زفرة حادة من صدره .

ــ انا لا اتكلم عن اللبنانيين عامة ، وانما اعني اولئك الذين يمسكون بمقدرات البلد ...

ثم سحب لصدره نفسا عميقا ، عاد واطلقه زفرة اخرى .

ــ .. هم يخافون منّا ..

وقرب حاجبيه بمحاولة منه لتجميع افكاره .

ــ .. نحن « الفلسطينيين » عامة ، ومن ضمننا سكان المخيمات ، لان وجود المقاومة اقترن بوجودنا .

ساعتها لم تطلب زينب من ابراهيم تفسيرا لآخر ما قاله ، وفضّلت الاحتفاظ لنفسها بسؤالها المعذّب :

ــ واذا نجحوا بترحيلنا عن لبنان .. أين نذهب ؟!

* * *

كانت في السابعة من عمرها عندما لجأت بصحبة اهلها الى لبنان ، ليتخذوا من احد الاكواخ الخشبية في منطقة المسلخ سكنا لهم .

ذكرياتها ــ التي تستطيع ان تسلسلها تسلسلا منطقيا ــ تبدأ من المسلخ ، اما عمّا قبل ذلك فذكرياتها كافّة لا تعدو كونها تتفا من صور موغلة في البعد ، متناثرة ، لا يربط بين اجزائها رابط واضح .

قرميد سقف البيت الذي يأخذ باللمعان بعد توقف المطر ، وظهور الشمس . رغبتها الرعناء بالركض في المطر . قدماها الموحلتان .

ــ .....

ــ كنت اخاف عليك من المرض بسبب ثيابك الرطبة ، فأخرج اليك لاعود بك الى داخل البيت . لكنك كنت عنيدة مثل المرحوم ابيك . كنت تغرسين قدميك الحافيتين في الوحل ، وتتشبثين بكل ما يقع

تحت يديك ...

ذاك ما قالته لها امها قبل وفاتها باشهر قليلة . وتتذكر زينب انها سألت زوجها في حينها :

ـ لماذا تصرّ امي هذه الايام بالذات على تذكر الكثير من تفاصيل حياتها في فلسطين ؟!

فاجابها ابراهيم بصوت يشوبه الحزن :

ـ السن تقدمت بها ، فازداد حنينها الى مسقط رأسها :

* * *

تتذكر ايضا كلبهم الكبير « عنتر »

ـ .....

ـ كنت تصرين على الركوب فوق ظهره ، متشبهة بالمرحوم ابيك ، عندما يركب فرسه « الغبرة »

وهناك هواياتها الغريبة ، متمثلة في حبها لجمع اكبر عدد ممكن من حبات البرتقال الصغيرة الخضراء المتساقطة عن اشجار البرتقال قبل نضوج ثمره .

ـ .....

ـ ما كنت تكتفين بما تجمعينه من تحت الاشجار ، بل اني كثيرا ما رأيت يديك الصغيرتين تمتدان ـ بتلصص حذر ـ الى الاغصان ، لتقطفا ثمار البرتقال وهي خضراء لم تنضج بعد .

ـ وهل كنت آكلها ؟

ـ لا .. كنت تكتفين بجمع اكبر عدد منها . باللعب بها .

* * *

نافذة خشبية ذات لون يقرب من السواد ، بمشبك حديدي صدىء .

ـ .....

ـ هي نافذة بيتنا ، ويا لأصرارك الطفولي على التشبث بقضبانها ، وصعودها ، على الرغم من الرضوض التي اصبت بها ذات مرة ، بسبب سقوطك من اعلاها .

ـ لا اذكـر !!

ـ كنت طفلـة ..

لكن الذكرى التي بقيت متشبثة بذهـن زينب ـ بقوة غريبة ـ هي الفجـر .

ـ استيقظي !!

ففتحت عينيها الطفلتين على عويل من امها مفجوع ، وتذكر بأنهـا اعولت بدورهـا فزعا قبل ادراكهـا السبب .

* * *

ما كانت بأمها الحاجة لان تعيد تمثيل الواقعة ..

ـ ليلة شؤم ما بعده شؤم تلك الليلة التي دخل فيها عمك البيت : « البقية في حياتك !» وما صدقت ـ منذ الوهلة الاولى ـ بأن المرحوم مات مقتولا برصاص اليهود ..

ترفع امها طرف كمها الى عينيهـا .

ـ .. مات مع رجال آخرين من شباب القرية ، ظلّوا يدافعون عند حدود منازلنـا حتى آخر رصاصة لديهم .

* * *

ـ استيقظي ! ابوك مات !

فأعولت بأعلى بعدما ازداد فزعها ازاء الانهيار المفاجيء لامها ، ومن غير فهم واضح لما يعنيه الموت .

ـ اسرعي ! علينا ان نلحق بالماشين !

ذلك الفجر كان شبيها بأي فجر آخر . الغبش . شجرات البرتقال . النافذة . الرياح الباردة ، والتراب المشبع بالندى .

لكن الذي انحفر في ذهنها ، ذلـك اللغط والعويـل اللذان كانا يصدران عـن الناس .

القرية باجمعها . نساء . اطفال . كهول . تتنادى لتهاجر الى جهة مجهولـة .

ـ اسرعوا اكثر !!.. اليهود في طريقهم الآن لمهاجمة القرية مـن طرفها الشمالـي !!

وتذكر كلبهم « عنتر »

ـ لازمنا طوال السفر حتى وصولنا حدود لبنان .

ـ وبعد ذلـك ؟!

ـ فقدنا آثاره .. لا ادري كيف !

ـ لعله وجد من يؤويه !

ـ هل تظنين ؟!

ـ .....

بعد اشهر من اقامتهم في لبنان ـ المسلخ ـ ادركت زينب مـا يعنيـه الموت .

ـ متى يعود ابي ياأمي ؟!

كانت في السادسة من عمرها ، وعرفت بأن الموت هو فقدان ابدي، لا امل يرجى منه ، بعدما واجهت ـ مع نفسها ـ صعوبة كبيـرة فـي الاقتنـاع .

ـ ابوك مات ، ولن يعـود .

وما استطاع عمها ـ الذي كان شابا يافعا في حينها ـ على الرغـم من حدبه وحنوه عليها ان يعوضها الاب ، والحضن الحامي عندما كانت تتعرض لغضب امها ، والشارب الكث ، الذي طالما طاب لهـا ان تمر باصابعها عليه ، وهي جالسة في ذلك الحجر ، الصلب ، الوسيع ، اما عن ولعها الخاص بتعلقها في كتفيه ..

وما استطاعت المسلخ .. بازقتهاالمتربة ، الضيّقة ، المتغلغلـة بين اكواخ الصفيح والخشب ـ والتي كانوا قد وصلوها بعد اشهـر مـن الترحال ـ ان تعوضهـا ذكريات البيت . البرتقال . النافذة . المطر . عنتـر .

***

بعد حوالي السنة من اقامتهم في المسلخ بدأ كل من امهـا وعمها يعاملانها كما لـو كانت امرأة راشـدة .

كانت في السابعة عندما عهدت اليها امها بالكثير من اعمال البيت.

ـ ما دمت قد حرُمت فرصة التعليم ، فيجب ان تكوني ربّة بيت

علــى الاقــل .

ذاك ما كانت تردده امها في اذنهــا .

« ربة بيت » ،وما تغيرت الحال بعد زواجها من ابراهيم، وانتقالها للاقامة في بيتــه بالشيّاح .

ــ انت لا تغفلين امرا من امور البيت .

ويضحك ابراهيم بسعادة . كانا في الاسابيع الاولى لزواجهما ، وما كانت الشاحنة لتأخذه بعد ، ويستطرد :

ــ .. حتى تلك الامور التي لا تخطر ببالي .. « اليوم غسيل ، اخلع ثيابــك الداخليــة !»

« ربّة بيت » اذن : امها لعبت دورهــا بمهــارة ، فيجيء الفرح باعتــزاز واثق .

***

ظروفهم المعاشية حاليا ، الى جانب ندرة فرص التعليم ، تسببت في حرمــان ابنتها فائزة من مواصلة التعليم بعد انهائها الدراسة الابتدائية .

« التعليم ليس بالمجان يا امرأة ! »

كل هذا لا مجال لمعالجته الآن ما دامت صفة « لاجئة » منطبقة على ابنتها كما هي عليها ،لكن الذي يحزّ في نفسها ان فائزة ــ ابنة السادسة عشرة ــ بأستعداد غير كاف ، بل معدوم لان تصير ربّة بيت ناجحة .

« لماذا البنت ليست لأمهــا ؟! »

ويحزّ في نفسها اكثر ــ وهي المسؤولة دون زوجها عن تربية ابنتها وتوجيهها ــ ان تكون علاقة الابنة بأبيهــا اشبه بأية علاقة اخرى ، قــد تقوم بين الاخيرة ، وبين اي قريب يتردد على زيارتهم ليوم واحد فــي الشهر ، مع فارق الانتظار والشوق ، وتوقع تلقي بعض الهدايا الصغيرة التي يجلبها لهــا معه عند عودته ، في الوقت الذي بقيت فيه علاقة زينب بابيها ــ رغم موته وهي طفلــة ــ قوية ، حادّة ، مؤثرة ، وراسخــة ، كمثل رســوخ علاقتها بأمها .

٨

❋ في تصريح للسيد محافظ البقاع ، قال :

ما زالت الحالة هادئة في جميع مناطق البقاع ، عدا حادث عرضي في شتورة ، حيث جرى تبادل اطلاق نار بين فئتين مـن المسلحين عنـد منتصف الليلة الماضية ، لكن رجال الدرك سارعوا الى اماكن الاشتباكات، وبدأوا بمطاردة المتسببين في اطلاق النار •

كذلك فان رجال الامن في طريقهم لازالة الحواجز التي وضعهـا بعض الاهالي المزودين بالسلاح على طريق بيروت ــ دمشق •

* * *

❋ وفي تصريح آخر للسيد محافظ الشمال ، أفاد :

سُمعت بعض الانفجارات ليلة البارحة ، الى جانب تبادل اطلاق رصـــاص •

الحال في طرابلس وضواحيها هادئة والحياة اقرب الى ان تكـون طبيعيـــة •

❋ اما السيد محافظ الجنوب فقد أفاد :

على الرغم من الانفجارات التي حدثت في اماكن متفرقة مز صور وصيدا فان الحالة هادئة ، والحياة شبه طبيعبة • وللمزيد مـن العلم •• يسعى رجال الامن لازالة الحواجز من الطرقات ، وابعاد الاهلين عنها •

❋ نداء الى المواطنين كافة :

الرجاء افساح المجال امام رجال المطافيء ، والاسعاف ، للقيام بواجباتهم الانسانية النبيلة ، وعدم التعرض لهم باطلاق النار عليهم .

* * *

❋ وصلتنا شكاوي كثيرة من المواطنين الموجودين في مناطق الاشتباكات بصدد حاجتهم الى الخبز ، ونحن اذ ننصحهم بالصبر ، نصارحهم القول ، بأن رجال شركة التموين عاجزون عن الوصول اليهم بسبب حدة الاشتباكات .

ونعدهم باننا سنقوم بتوزيع الطحين على الافران ، وكذا باقي المواد الغذائية حال عودة الاوضاع الى مجراها الطبيعي في مناطقهم .

* * *

الكيس الورقي بامتلائه غير الطبيعي بالمعلبات يشدّ كتفي اسعد باتجاه الارض .

الخدر يسري في اصابع يديه المسكتين ــ قويا ــ بزجاجتي الوسكي .

« ثقيلتان !! »

واسعد لن يسقطهما مهما كلفه الامر ، خصوصا بعدما حملهما طيلة هذه المسافة .

بعد قليل ــ لدى وصوله السرداب ــ يستطيع ان يضطجع على ظهره ، ويستريح الى ما لا نهاية .

« والتعب !! »

قدماه تتعثران جراء الاجهاد . ما الذي دفعه لحمل كل هذه الكمية الكبيرة من المعلبات ؟..

« هل يتخلص من بعض حمله ؟! »

ثم عاد وعدل عن فكرته ، من شيمه ــ لو ترك له الخيار ــ الا يرضى بالتسليم او الانهزام امام العقبات والمشاكل التي تصادفه ، مهما كان حجمها وضراوتها ، الا اذا غلب على امره ، كما هي حاله مع زوجته .

توقف عن المشي • لم يبق عليه الا ان يجتاز الطريق ، لعلهم يرونه الان ، مــن نافذة السرداب •

الصق ظهره بالجدار ، وسحب لصدره نفسا عميقا •اخشى ما يخشاه ان يتسبب له الاجهاد بنوبة قلبية جديدة •

يتنفس الصعداء • اطلاقات مدفع رشاش تتردد في مكان مــا • القنّاصة • عليه ان يتريث قليلا • من العار ان يصاب ، او يموت وقــد شارف الانتهاء من مهمته •

ازيز صاروخ • فيتسارع خفقان قلبه • الازيز يتخطى البناية الى اخرى • دوي هائــل •

خفقان قلبه يعاود طبيعته • حتى متى سيظل مبناهم في منأى عــن الاصابة بصاروخ طائش ؟!

صعد عينيه في المبنى القديم ذي الطوابق الثلاثة •

رعدة عنيفة تجتاح جسده • زجاجتا الوسكــي تصــدران رنينا متسارعا بسبب تماسهما المرتعش •

ثغرة واسعة تطالعه في جدار المبنى ، عند الطرف الايمن للطابــق الثاني حيث غرفة نومــه •

« صــاروخ ! »

لو كان أسعد في الفراش ، لاصبح في خبر كان !••

ما الذي ستفعله جميلة عندما ترى الخراب حالاً بشقتها ؟!

لعلها لن تتوانى عن تأنيبه ، وتحميله مسؤولية كل الذي حدث •

ــ كم مرة قلت لك : دعنا نستأجر شقة قريبة من سكن اهلي في منطقــة الجامعــة العربيــة ؟!

ثم تواجهه صارخة في وجهه :

ــ لو انك اطعتني !! •• لو انك سمعت كلامي مرة واحــدة في حياتك ! انظر ! ما الذي استطيع ان افعله بهذا الاثاث المحطــم ؟ وايــن سننــام منــذ •••

لكنه يبعد شبح وجه زوجته المشوّه بالغضب والحقــد من امــام مخيلته ، ليسر بعينيه على اماكن اخرى من المبنى •

الجدران ليست مصابة حسب ،بل مثقّبة ــ عبر كل شبر منها ــ بثقوب مختلفة الاحجام ، كمثل منخل كبير اخرق • بقايا الزجاج تتعلق بزوايــا اطــر النوافذ • الطابق الثالث ــ حيث يسكن كل مــن حنّا وابراهيم ــ يكاد يكون مهدما تمامــا •

حنّا ــ اثناء خروجه امس ــ رأى ما حلّ بمنزله ، فما سبب تردده عن اخبار امه ؟!• ام ان كل هذا الخراب ••

صوت محرك سيارة • فتحين من اسعد التفاتة سريعة ، لا ارادية ، ناحية طرف الشارع • سيارة جيب تقترب •

وبحركة لا ارادية اخرى ، قوية، ومــن دون تفكير ، او تصميــم مسبقين ينفلت راكضا كما لم يركض من قبل •

مركز الجذب ــ عفويا ــ يتمثل بالسرداب • الامان الذي اعتاده طيلة الايــام الماضيــة •

دوي المحرك يكبر • طلقات مدفع رشاش • صفير حــاد لرصاصة تصدم اسفلت الشارع ، فيمــا بين قدميه •

« لمــاذا ؟! »

تساءل في داخله بصوت باك •

« انا مــا •• »

لكن فوهة مدخل البناية احتضنته • الدرجات العشر لسلم السرداب تتحول ــ باجمعها ــ الى درجة واحدة • حنّا في مواجهته بدلا مــن البــاب الحديدي •

ــ انتبــه ! !

صرخ حنّا محذرا •

* * *

كانت زينب من بين الذين راقبوا اسعد من نافذة السرداب وهو في طريق عودتــه •

ــ حمله ثقيــل ! !

قالت باحساس مشارك ، فاعقبها بولص هاتفا بلهجة مشوبة بفرحــة الاكتشاف :

ـ ما تلك الزجاجات المتدلية من يديه ؟!

حنّا امعن نظره قبل ان يردد بصوت خفيض لكنــه مسموع مــن الاخريــن :

ـ تصرف احمق !

فصدرت عن مارسيل نحنحة مبهمة ، وهي تتطلع ناحية اسعد ، الذي كان ـ وقتها ـ مستندا بظهره على الجدار المقابل عبر الشارع ، عندما بدأ فيه دوي السيارة الجيب يقترب من المكان ، مما دفع حنّا للاسراع باتجــاه بوابة السرداب ، بهدف مدّ يد المساعــدة لأسعــد اذا اقتضى الامر •

* * *

القفزة الجنونية التي قام بهــا اسعد ـ تتيجة ركضه السريع ، وتخطيه الطائر لدرجات السلم المفضي الى السرداب ـ لم تمهل حنا ـ المأخــوذ دهشة ـ فرصة الابتعــاد عــن طريقــه •

ـ انتبــه !!

صرخ محذرا ، لكــن اسعد صدمه بقوة ، والقاه جانبا ، ليسقط ـ بدوره ـ سقطة قوية على وجهه،مما ادى الى تحطيم الزجاجتين المعلقتين في اصابع يديه تحت فخذيه •

* * *

لعل رائحة الوسكي المتشبع بثيابه هي العامل الرئيسي في سرعــــة عودتــه الى وعيــه •

ـ آه آه !!

رفّ بجفنيه ، ثم فتح عينيه • وجوه غائمة • كثيرة • تحيط به مــن كل جانــب •

ـ اين انــا ؟!

تساءل باندهاش مفزوع ، فافلت بولص ضحكة قصيرة ذات جرس حزيــن مرّ •

ـ في السرداب •

ـ السرداب !!

ـ بالسلامة ان شاءاللــه !

رددت زينب ، واعمل اسعد فكره لثوان • الكيس • الشارع • سيارة الجيب • الرصاص • الرصاص •

« أُصبت !! »

انبعثت في ذهنه ، فأنبعث الالم ــ على اثرها ــ حارقا في فخذيه •

« أُصبت !! »

مارسيل ما زالت منحنية على فخذيه • اصابعها تعمل في شدّ خرق من القمــاش •

« هكذا •• اذن !! »

يبحث عن رباطة جأشــه •

ــ كم رصاصة ؟!

تساءل بصوت لاهث ، جهد ان يجعله طبيعيا ، ولمّا لــم يأته رد سريع عــاد الى السؤال :

ــ كم رصاصة اصابتني ؟!

فوصله الرد ــ أسيفا ــ من بولص :

ــ زجاجات الوسكي هي التي اصيبت !

ــ •••••

الدهشة لم تزايل وجه اسعد ، وكــذا الفزع ، فتطــوعت مارسيل بالايضاح ، وهي تنتقل ــ بعد انتهائها من تضميد فخذيه ــ لمعالجة جبهتــه المصابة بكدمة بنفسجية اللون كبيرة •

ــ انت سقطت على وجهك • الزجاجات •••

ولم تستطع منع نفسها عن الابتسام •

ــ •• نثار الزجاج هو الذي جرح رجليك •

٩

تصرفات كثيرة ـ لا تستطيع مارسيل الا ان تصنفهـا ضمن الاعمال الشاذة ـ كانت غالبا ما تصدر عن الرجال ، سواء اولئك الذين كان لها نصيب الاحتكاك المباشر بهم ، بدءا من زوجها جورج ـ الذي لولا بعض صرامة من ابنهمـا حنّا لما نجحت باقناعه في دخول المستشفى قبل اسبوعين لمعالجة ما يعانيه من روماتيزم مزمن ـ وانتهاء بلويس الذي شـاركهـا مأساة لا تعلم حتى اليوم كيف وفقت للنفاذ بجلدها منها ، او الرجال الذين عرفتهـم عن كثب ، واخرهم جارها اسعد هذا .

***

في السنوات الاولى لخبرتها الحياتية كانت الحيرة والدهشة ، او الحزن على ما يصل اليه من تعاسة مريرة هي اساليبها الوحيدة لمجابهة ما يصدر عن هؤلاء الرجال ، لكن تقدمها في السن ساعدها كثيرا على التحكم بمشاعرها ، مع مواجهة مجريات الامور باعصاب باردة ، ومحاولـة ايجـاد تبرير ما معين ـ وان بقي مرفوضا من العقل السليم ـ لكل الذي تتعرض لـه من جانبهـم .

***

عند سفح الجبل في عاليه تفتحت انوثتها ، على اثر طفولة وصبا غير مسؤولين ، وفي كنف اب يعمل في الزراعة ، وام تتولى شؤون المنزل .

كان عالمها محدودا بين البيت والمزرعة طيلة أيام الاسبوع ، عدا يوم الاحد ، حيث تتاح لهـا فرصة مرافقة ابويها الى الكنيسة .

الذي تعرفه ان لها أخوين، اصغرهما يكبرها بـإثنتي عشرة سنة .

ـ لم أرهمـــا !!

فترد الام على سؤال مارسيل التي كانت في السادسة من عمرهـــا ايامهـــا :

ـ اخواك هاجرا الى اميركا مذ كنت في المهد .

ـ متى يعـــودان ؟!

ـ ....

لكن أيّا من الاخوين لم يعد لسنوات عديدة ، بعدد سنوات عمر ابنهـــا حنّا .

ولو ان احدهما كان موجودا أبّان مواجهتهـــا لموضوع زواجها . لوقف بشكل او بآخر الى جانبها .

* * *

« خوخة » ذاك هو الاسم الذي اشتهرت به لدى النـــاس الذيـــن يعرفونها ، في الايام التي سبقت زواجها من جورج . انوثتها المتفجرة . صدرهـــا العارم . عيناها الواسعتان ببريقهما العفوي النهم . بشرتهـــا النضرة .

كانت ـ اجمالا ـ اشبه بثمرة خوخ ناضجة تماما ، تنتظر من يسارع لاقتطافهـــا .

ومن بين جميع الذين كانوا يهمسون لها بكلمات غزل رقيقة اثنـــاء دخولها او خروجها من الكنيسة يوم الاحد اختارت لنفسها شابّا رأت فيه تجسيدا حيّا للرجل الذي تحلم به حبيبا وزوجا .

لقاؤها المنفرد الاول بلويس كان في اصيل يوم اثنين عنـــد الطرف الابعد لمزرعـــة أبيهـــا .

* * *

ـ انت حلوة !

ذاك ما تجرّأ لويس ـ بعد طول تردد ـ على التفوه به مضطربا ، ثم صمت ،فاندهشت .

وهي تسير في اثر ابيها وامها يجرؤ على التفوه بالكثير ، حتى اذا ما

جمعتها واياه عزلـة لذيذة عقل لسانه •

* * *

في لقائهما الثاني ـ بعدما قررت مع نفسها ان تأخذ زمام المبادرة ـ سألتـه :

ـ ما بـك ؟!

فتلعثم وهو يجيبهـا :

ـ لـ •• لا شيء •

ابتسمت باغراء واثـق •

ـ اقترب منـي اذن !!

ولما تردد حائرا قبل ان يجلس لصقها همهمت بصوت محموم :

ـ لامسني !!

ـ ••••

لكن مارسيل ـ ابنة السبعة عشر عامـا ـ استطاعت كبح جمـاح رغباتها الغريزية حرصا على عفتها • وتوقفت ـ مع لويس ـ عند حدود المداعبات والقبل ، على أمل الاحتفاظ بما هو اكثر لذة الى ما بعد اقترانها به ، بيـد ان الموقف الشاذ الذي اتخذه ابوها ـ بصدد امر زواجها ـ نسف لهـا كل طموحاتها واحلامها •

* * *

وشتاء ذلك العام على الابواب تقدم جورج من أبيها طالبا يـدها ، فوافق على الطلب مباشرة •

علاقة القرابة ،الى جانب الوظيفة الحكومية التي يشغلها جـورج ـ امين صندوق في احدى دوائر بيروت الحكومية ـ يضاف الى ذلك رغبة الاب بالاسراع في تزويج ابنته تخلصا من مسؤولية اعالتها ، الـى جانب تربيتها ، ومراقبة تصرفاتها • تلك هي محبذات قبول الاب لجورج ،ودافعه للمسارعـة في الاعلان عـن موافقته •

* * *

اليأس والخذلان اللذان حلا بلويس لم يجدا صـدى مماثلا فـي نفس مارسيـل •

ــ سأطلع ابي على حقيقة الامر !

فأكتفى لويس بالصمت ، ما كانت مارسيل تشك بقدرتها على اقناع ابيها •

ــ سأكلمه الليلة •

ــ ••••

ــ سأقول له :

***

ــ انا احب لويس •

لكن سحنة ابيها التي سرعان ما تغيرت صدمتها •

ــ ماذا تقولين ؟!

صرخ في وجهها ، والغضب العارم يشدّ عضلات وجهه ، كانوا بسبيلهم لتناول طعام العشاء •

الام كتمت انفاسها مفزوعة ، بينما امتدت يد ابيها الضخمة الى شعرها ، لتطبق عليه بقوّة •

ــ ماذا قلت يا عاهرة؟!

ــ انا •••

لم يدعها تتم ، واستطرد صارخا :

ــ ما اخطأت في حدسي عندما قلت : علينا ان نزوّجها باسرع وقت ، قبل ان يصدر عنها ما يسيء لسمعتنا !!

ــ لا تكن قاسيا معها ••

قالت الام من بين دموعها •

ــ •• هي طفلة طائشة !!

ــ اخرسي !!

فخرست الام ، واتم الاب بحقد متفجر :

ــ انتِ السبب !!

وكان ان قضت مارسيل ليلتها تلك باكية بحرقة ، وآلام الضرب القاسي تنبعث من جميع اجزاء جسدها ، وفي ذهنها سؤال يعذّبها اكثر :

ـ لماذا يرضى لي ابـي ان اضاجع رجلا لا أحبه ، ويمنعنـي عـن آخـر احبـه ؟!

***

ليلة زواجها من جورج عاملهـا الاخير برقّة وصبر بادىء الامر ، سرعان ما تحولا الى الحاح لجوج ازاء رفضها البات لرغباته .

ولانها لم تعر توسلاته اذنا صاغية فقد اضطر ـ والفجر يوشك على الانبلاج ـ الى اغتصابهـا .

ضحى اليوم التالي اعتذر لها بصوت حنون :

ـ كنت مجبرا . هو الزواج، وبالنسبة اليك لك الحق ، فأنت مـا زلت صغيرة ، وجاهلة بمثل هذه الامور ، لكني واثق بأنك ستعتادين ..

وابتسم مستطردا :

ـ .. كذلك ستجدين متعة .

ـ ....

ولعل صمتها هو الذي اوحى اليه بأنها توافقه على رأيـه موافقـة ضمنيه ، فمدّ يده الى صدرها .

ـ انت شهيّة !

***

رفضها المستمر ، والمستميت في الوقت نفسه لتلبية رغباته ، اضافة الى فارق السن ـ كان جورج في الخامسة والثلاثين ـ زادا من حـدّة اشتهائـه لهـا .

ـ ستعتادين !

ثم يشلّ حركتها بساعديه القويين .

ـ وستجدين متعـة !

لكن مارسيل اعتادت على كرهه ،ووجدت متعة في بحثها الدائب عن وسيلة للاتصال بلويس ، الذي انقطعت اخباره عنها بعد مغادرتها ـ منـذ اليوم التالي لزواجها ـ بصحبة جورج الى بيروت ..

فرن الشبّاك ، حيث سكناه قرب مقر وظيفته .

بعد انصرام الشتاء واتتها فرصتها الاولى للاجتماع بلويس في ثاني زيارة تقوم بهـا لبيت ابيها .

مكانهما السابق . الطرف البعيد للمزرعة ضمهما في اول لقاء لهما ، بعـد زواج مارسيـل .

ـ انت تعيشين في بيروت !

قال لويس باضطراب ، وصمت دقيقة بكاملها ،قبل ان يضيف باللهجة ذاتهـا :

ـ متى تعودين اليهـا ؟!

كان ـ كما هي عادته ـ مترددا ، يضاف الى ذلك انه صار يخشاها اكثر بعدمـا اصبحت امرأة متزوجة، على الرغم من ان اغتصاب جـورج المستمر لها زاد في بريق عينيها ، واضفى على اتساع حدقتيها عمقا مثيرا .

ـ وجورج .. كيف حاله ؟

فالتفتت اليه ، وفي عينيها تحدّ غاضب ، من اجل ان تضع حـداً لتساؤلاتـه الحمقاء .

ـ تعال !!

هتفت بنفاد صبر باد ، واضافت :

ـ ... وقتنا ضيّق !

* * *

تلك ايام ما عادت لمارسيل علاقة بها ، بل هي ـ في الغالب ـ تسعى جاهدة لتجاوز تذكرها عند اختلائها بنفسها ، فالمغامرة التي اوغلت فيهـا حتى الثمالة تسببت لها بمأساة لـم تحسب لها حسابا عاقلا ، وامتدت بظلها القاتم على سنـوات عمرها كافـة .

فالفكرة : « ـ لا بد ان نعيش معا ! » ما كانت لتختمر في ذهـن لويس لولا ما بدر عن مارسيل من الحاح منذ اللحظة الاولى لانتشائهـا الجنسي العـارم معـه .

ـ لن يضمني انا وجورج فراش واحد !!

وما كان لويس ـ نتيجة حداثة سنه فـي ذلـك الحين ـ بعقـل راجـح كاف .

ـ مـاذا نفعل ؟!

سؤاله الحائر هذا ، قادها الى اكتشاف :

ـ نهـرب •

لويس لم يرفض الفكرة ، لكـن حيرته كادت تقضي على حيويته ، ومـا دار في ذهـن مارسيل :

ـ ماذا بعد هربنا ؟!

* * *

بعد هربهما باسبوع واحد ، واستقرارهما في كوخ عند سفح جبـل حريصا ، استطاع ابولويس ان يعثر على مكانهمـا •

ـ تعال يا « ابن الكلب »!

صرخ مخاطبا ابنه حال تخطيه باب الكوخ • الدماء غاضت من وجه لويس • كـان قـد عاد لتوه ـ متعبا ـ مـن المزرعـة الكبيرة ، حيث التحق منذ ايام كعامل زراعـي ميـاوم •

ـ تظن بأني لن اعثر عليـك !!

عاود الاب صراخه ، في الحين الذي نكّس فيه لويس رأسه ، ولم يفـه بكلمـة •

ـ •• ما الهدف من وراء هربك مع هذه العاهرة ؟!

وما استطاعت مارسيل ـ وهي ضمن موقف متأزم لـم يخطر لها على بال ـ ان تردّ دفاعا او تبريرا •

ـ •• دنّست شرفنـا ! !

واجه الاب ابنه قبل ان ينهال عليه بالصفـع •• لويس المأخـوذ ، ومارسيل المضيّعـة •

ـ •• امامي « يا ابن الكلب !! »

ثم خرجا • لويس في المقدمة ، لا يكـاد يبصر ما امامـه ، والاب الماشي في اثره لم يكلّف نفسه عناء الالتفات ناحية مارسيل ، صامّا اذنيه ازاء عويلهـا المفجـوع •

* * *

« ما العمل الآن ؟! »

ولانها لم تجد ايسًا اجابة ، اوغلت في العويــل اكثر فأكثر . بعــد ساعة من رحيلهمــا سمعت نقرا خفيفا على باب الكوخ .

« مَــن ؟! »

كانت بحاجة نفسيّة للاغراق في البكاء ، عندمــا دخل مالك المزرعة الكبيــرة .

ــ منذ دقائق عرفت ــ من العمال رفاق لويس ــ بشكلتك .

وجهه بطابع من الحزن مشارك ، وانتظر برهة ريثما جففت دموعها ، واستوعبــت دهشتهــا .

ــ انا اهتمّ بعمالي وبعائلاتهم اكثر من اهتمامي بالمزرعة ..

كان الودّ ينبجس في عينيه .

ــ من العمال فهمت ...

وواجهها في عينيهــا .

ــ .. لويس ليس زوجــك .

الدم يحرق خديها . عيناها تهربان .

ــ .. وفهمت من ثورة ذلك الرجل الشرس والد لويس بانك متزوجة مــن رجــل آخــر .

وانتظر ريثمــا استوعبت دهشتهــا الجديدة .

ــ باستطاعتي ان اساعدك .

عيناها تعودان الى وجهه . الحنو .

ــ هل ترغبين بالعودة الى بيت زوجك ؟

رعدة عنيفة تجتاح كيانها . الفزع .

ــ هل ترغبين بالعودة الى بيت ابيك ؟

الرعدة اشدّ من سابقتهــا .

ــ لديك قريب اوصلك اليه ؟

نظرتهــا تخيم لشــوان.

ــ لا .

قالت كلمتها الاولى مرتعشة ، حائرة ، ومهموسة في الوقت ذاته .

ــ أظــن ..

ويفتر فمه عن ابتسامة هي خليط من الحنان والفرح •

ــ •• لا مانع لديك ــ في مثل هذه الحالة ــ من الالتحاق بعمل شريف ، يقيك التشرد !

فتومىء برأسها موافقة •

***

ــ عملك الجديد ــ من حيث التسمية ــ خادمة ، لكنك في الحقيقة ستكونين ــ بالنسبة لي ــ ابنة •

كفّه الناعمة تمر على شعر رأسها بحنان ، والعرفان ــ على الرغم من مأساتها ــ يتجسد في عينيها •

ــ اظنك لا تعرفين بأني اسكن بيروت !

ــ ••••

ــ في بيتي لن ينالك سوء •••

كفّه تضغط كتفها برقة أبوية •

ــ •• ولن يطالك الخطر •

***

عند منتصف ليلتها الاولى في البيت الكبير طرّق باب غرفتها الصغيرة •

ــ من ؟!

كانت ما تزال غارقة في همومها • ابوها • امها • لويس • جورج •

ــ انا •

ودخل المالك متسللا بخفة •

ــ جئت كي اطمئن عليك •

وما استطاعت توسلاتها • دموعها • رفضها • ولا حتى مقاومتها الجسدية عندما جدّ الجدّ ، ان تمنعه عنها مرة ، وثانية •

١٠

••• اصيل اليوم التالي استوقفها احد الخدم ــ وهي في طريقهــا لاداء واحد من الاعمال المنزلية المكلّفة بها ــ ليسألها :

ــ انت مارسيــل ؟

ــ نعــم •

فألقى الخادم معلومته اثناء ابتعاده عنها :

ــ على الباب رجل •• يطلبك •

ــ يطلبني انــا ؟!

الخادم لم يرد على سؤالها المندهش • كان قــــد ابتعد • والحيرة تتنامى في داخلهــا •

« من ياتــرى ؟! »

ثم تتزايد الحيرة •

« وكيف عرف مكاني ؟! »

* * *

الخوف • التردد • ومن فرجة صغيرة في الباب الكبير أطلت •

« جورج !! »

لم تتملكها المفاجأة من مجيئه ، بقدر مــا تملكها الاحساس بالضياع حال رؤيتهــا لــه •

تداعت في ذهنها البارحة • دفاعها غير المجدي عن جسدها ، ويقينها بأن باب غرفتها سيطرق هذه الليلــة أيضا •

« ــ انا لن أؤذيـك !! »

يهمهم لاهثا • ثقل جسده • ويداه القويتان تعملان على اخضاعها •

* * *

التذكر يبعث الغثيان حارقا في جوفها ، الى جانب رعشة لـذيذة ، ساخنة ، وكريهة ، مرفوضة ، في اللحظة ذاتها •

« لو بتّ ليلتي هنا لما اضطر لاستعمال قوته ! »

تمعن النظر من الفرجة الصغيرة • جـورج لا يعرف بوجودهـا وراء البـــاب •

وجهه بانتظار متوقع ، وطيبة قلقة ، ليس كما صوّره لهـا خيالها : الغضب • الحقد • الانتقام •

« لن ابيت هنا !»

انفجر القرار في داخلها • الغثيان والرغبة المحرمة ينحسران •

طيبته القلقة ، وينفتح الباب ، لتندفع خارجا •

ــ جورج !!

هتفت ، واعولت منتحبة بمرارة ، فاجأتها ، واراحتها فـي الوقت نفســه •

ــ خذني من هنـــا !!

* * *

ــ ابو لويس بعد عثوره على ولده خبّرني عن مكانك في حريصا ••

كانا في طريقهما الى البيت ، واستطرد جورج بصوت هادىء ،حزين، مشــوب بالعطف :

ــ •• وفي حريصا خبّرني احد العمال ان مالك المزرعــة الحقك خادمــة فـي بيتــه ••

للحظة خاطفة احسّت مارسيل بأنه لو نظر في عينيها لعرف البارحة•

ــ •• ولاني اعرف شوارع عين الرمانة ، جئت على العنوان مباشرة •

صوته يتلوّن بوازع المشاركـة :

ــ في البــدء •••

وصمت لثوان ، لم تجرؤ مارسيل خلالها على النظر اليه ، واتم هو بهمهمة خافتة ، اشبه بحديثه مع نفسه :

ــ لا .. لا بدّ لنا من العثور على منزل آخر في حي آخر غير فرن الشبّاك .

ــ خفق قلب مارسيل بشدة . كانت ــ لتوّها ــ قد ادركت جسامة فعلتها . الفضيحة . الحي . الناس .

ومن زاوية عينها تطلّعت ناحية جورج ، بمحاولة منها لمعرفة مدى الآلام النفسية التي سببتها له .

***

في اول ليلة لهما ــ بعد العودة ــ قال لها جورج مؤنبا من غير حقد :

ــ لو عرفت منك يوم خطبتك انك على علاقة حب مع لويس لاعتذرت من ابيك بأي شكل من الاشكال ، وانسحبت من حياتك !

ــ ....

ومنذ الليلة الاولى لعودتهما عادت مارسيل تضطر جورج لاغتصابها عنوة ، كلما عنّ له ان ينام معها ، لكن سؤالا قاهرا كان يعذّبها :

« من منّا سينسى قبل الثاني ؟! »

وبقيت لشهور عديدة لا تجرؤ على مواجهة زوجها في عينيه ، اما هو فقد بقي لسنوات طويلة ــ وعلى الاخص لدى تصاعد خلاف ما بينهما ــ يذكّرها :

ــ ما الذي كان سيؤول اليه مصيرك لو لم احتكم انا الى العقل واجيء بطلبك في عين الرمانة ؟!

وكان دورها : ان تتزود بالحكمة والصبر ، فأبوها الذي أجبرها على الزواج من جورج قطع كل علاقة له بها ، واقسم اغلظ الايمان الا يرى وجهها ما دام حيا، منذ ان عرف بخبر هربها مع لويس .

ثم جاء الحمل والولادة، فتوجهت اهتماماتها اجمعها للعناية بحنّا ، ورأت فيه ــ مع نموه السريع ضمن الجو الصحي الموّفر له ــ تجسيدا حيّا لنشأة حرمت منها هي .

ــ ايّاكِ ان يعرف الصبي بأمر ماضيك !!

حذّرهـا جورج ذات مساء ، بعدما رآهـا جالسة الى ولدها ـ ابن الرابعة عشرة ـ تحدثه عن ايام صباها في عاليه .

ـ لن افعل بالطبـع .

اجابت بصوت مُحبط ، وفتر الحماس في داخلها ، فكرة اخبار حنّا عن مغامرتها المشؤومة تلك ـ والتي تسعى جاهدة لاسقاطها من ذاكرتها ـ لم تكن قد خطرت لها على بـال .

***

لكن حنّا ـ على الرغم من سعي مارسيل لابعاده عن معرفة مأساتها ـ اختلى بها في احدى ليالي شتاء ما قبل ثلاث سنوات ، ليقول لها :

ـ حدسي كان فـي محله !

وجهه بابتسامة سعيدة واسعة .

ـ .. مُذ وعيت وانا اشكّ بوجود سرّ كبير في حياتكما ، انتِ وابـي !

تطلعت اليه مبهورة .

ـ .. اليوم ـ عن طريق الصدفة ـ عرفت من احد زملاء الدراسة من اهالي عاليه بقصة خوخة ولويس .

الدماء تحرق وجهها . العرق يتفصد في جبهتها .

ـ ... ما كان يعرف بأنكِ امي .

ثم مدّ كفيّه ليحتوي يدهـا المثلّجة .

ـ .. الان استطيع الجزم بأن لي أمّا اعتزّ بشجاعتها .

ومارسيل تهب لانفعالات شتى متضاربة .

ـ مـاذا تقول ؟!

فضغط على كفّها .

ـ اقول : تصرفك ذاك لم يكن جريمة لا تغتفر ، كما اوحوا لك .

دموع العرفان تنبجس في موقيها ، وهي تتطلع في وجه ابنها والهة .

ـ انا .. انا ..

لكنه قاطعها بصوته الواثق :

ـ كنت تدافعين باسلوبـك الساذج عـن وجـودك كأنسانة من

لحم ودم وعاطفة .

لم تفه بأيّما كلمة ، وعلى صدر ابنها الرجل انتحبت ــ للمرة الاولى ، منذ ما يربو على العشرين سنة ــ بمرارة يصاحبها احساس بالضيم والقهر .

بكاؤها كلما خلت مع نفسها ــ فيما سبق ذلك ــ كان مصحوبا بأحساس المذنب مرتكب الخطيئة .

***

جورج لم يعرف بأمر مصارحتهما ، كذلك فان امين الصندوق الذي احيل على المعاش قبل اربع سنوات لم يكن لديه الوقت الكافي كي يلحظ ما طرأ على شخصية زوجته من تغير ، نتيجة لانشغاله بمرضه المزمن من جهة ، اضافة الى انه كان ــ قبل النوبة الحادة للروماتيزم ــ يقضي جل وقته بصحبة ثلاثة من زملائه المتقاعدين ، عند ناصية دكان الحلاّق ،يلعبون الطاولة من جهة اخرى .

ولم يعرف بأن ابنهما حنّا ــ الى جانب محاولته الجادة لاعادة ثقة امه بنفسها ــ بدأ يشركها معه في جلسات خاصّة ، تضمّ رفاقا له من الجنسين .

***

ــ رفاق لي في العمل سيزوروننا عصر هذا اليوم .

همس لها حنّا في اذنها ذات مرة ، بعيدا عن مسمع ابيه ، فلحقت به حتى غرفته .

ــ انت تحيّرني يا حنا !! .. من اين لك برفاق في العمل وانت لا تزال طالبا ؟!

يبتسم بتفهم .

ــ هم رفاق العمل السياسي .

وبطبيعة الحال ما كانت مارسيل تفهم كنه ما يدور في جلساتهم من احاديث ، بيد انها وجدت سعادتها الحقيقية في القيام على خدمتهم .

ــ سأعدّ لكم شايًا آخر !

وتوفير الراحة لهم ،لكن راحتها وسعادتها سرعان ما تزعزعتا وآلتا الى شقاء وقلق شديدين داما لمدة اسبوع ، هو الاسبوع الذي قضاه

حنّا في الاعتقال ، على اثر اضرابات طلبة الجامعة •

ــ كدت أجنّ خوفا عليك !!

قالت باكية وهي تأخذه بين ذراعيها ، بعد عودته من المعتقل •

ــ هكــذا !!

ثم يبتسم ، ليربت على كتفها ، ويستطرد بصوته المتفائل أبدا :

ــ المفروض بنا الا نخاف من الذين يخافون منا •• اليس كذلك ؟!

ولانها لم تفهم كما ينبغي ،اضاف :

ــ لولا خوفهم منّا ما لجأوا الى اعتقالنا •

***

في المعتقل يظلّ حنا عرضة للتحقيق ، او السجن على اكثر تقدير •

اما وهذه الحرب في عنف اشتعالها ، فهل هناك ــ وهــو المعرّض المخروج من السرداب مرة ثانية •• ماء •• طعام ــ سوى الموت ؟!

لو كان جورج موجودا،لاستطاع ــ على الرغم من مرضه ــ ان يشد ازرهــا قليــلا •

١١

* ايها المواطنون الكرام :

يسرّنا ان نعلن على حضراتكم هذا النبأ ، الذي وصلنا الان ٠

بفضل الرجال الاخيار الساهرين على امن بلدنا المضياف لبنـــان ، بدىء — منذ الساعات الاولى لصباح اليوم — بوضع قرار وقف اطلاق النار موضع التنفيذ ، في مناطق متعددة من بيروت ٠

هذا ٠٠ ولا يزال رجال الامن يبذلون جهـــودا مكثّفة للفصل — بشكل نهائي — بين الاخـــوة المتنازعين ٠

كذلك تجدر الاشارة الى ان حدّة اطلاق النار بدأت تخف تدريجيا من المناطق الرئيسية للاشتباكات ، ونعني بها : الشيّاح ٠ عين الرمانـــة ، مما يشير الى قرب انفراج الازمة انفراجا نهائيا ٠

بالنسبة للمواطنين الذين ضاقوا من بقائهم في الملاجيء : نعدهـــم بوصول رجال الاسعاف ، والاطفاء ، والتموين اليهم حال توقف ما تبقـــى من الاشتباكات في مناطقهـــم ٠

على الجميع ان يتحلوا بالصبر والامل ، فلبنان الذي واجه صعوبات جمّة ، عبر العصور كافّة ، سيخرج من محنته هذه سليما معافى ٠

***

— يبدو ان الوضع آخذ بالانفراج !

قال بولص كلماته ممضوغة ، بسبب امتلاء فمه بكمّية من حبـــوب

الفاصوليـاء المعلبـة .

ـ حقـا ؟!

ثم نقّل اسعد بصره من وجه بولص الى علبة الفاصولياء بضيق لـم يوفق لاخفائه ، قبل ان يرفع يده الى رأسه متحسسا كدماته ، ليستطرد باللهجـة الحانقـة ذاتهـا :

ـ بعد مـاذا ؟

كانت الساعة تشارف السابعة صباحا . مدّ بولص يده الى مفتـاح المذيـاع ، فتلاشى صوت فيروز .

ـ اتدري ؟!

تساءل ، واطلق ضحكـة قصيرة، قبل ان يتمّ معاكسا :

ـ انت السبب في ما جرى لك .

ـ هكذا ؟!

اطلقها اسعد ، وهو يستشهد حنّا بعينيه .

ـ ... اذن من الذي دفع ثمن وجبتكم الدسمة هذه ؟!

حنّا اكتفى من الرد بابتسامة مشجعة ، لم تلق قبولا ملائمـا لـدى اسعـد .

ـ .. هذا جزائي لاني فكّرت فيكم اكثـر ممـا فكّرت فـي نفسي واولادي ...

وصمت للحظـة .

ـ .. الذين لا اعرف مصيرهم مع تلك الـ ..

كان بصدد ان ينعت زوجته « بالعجلة » لكن خوفه ان يصلها نعته بشكل او بآخـر منعه عن الاستطراد .

ـ انت قمت بالواجب .

قالت زينـب .

ـ واكثـر .

اضافت مارسيل ، فتدخل بولص بلهجة لا تخلو من سخرية ودودة :

ـ على الرغم من ضياع الوسكي .

ـ « شكر الله سعيكم !»

ردّ اسعد على الجميع بسخرية واضحة ، وكان بصدد الاستطراد :
ــ الكلام شيء ، ومغادرة السرداب في مثل ظرف خروجي شيء آخر !
عندمــا هتف حنّا :
ــ اسمعوا !!
فخيّم صمت مفاجيء على السرداب ، وارهف الجميع آذانهم .

***

الصمت الذي خيّم على السرداب امتــدّ ليشمل منطقــة الشبّاح بأجمعهــا .
دهشة متفائلة تأخذ طريقها الى وجه زينب ، لتتجسّد في صوتها :
ــ الانفجارات توقفت !!
ــ لعلهم بدأوا بتنفيذ قرار وقف اطلاق النار في كل المناطق !
قال اسعد ، فاجابه حنا باقتناع زلزل تفاؤله :
ــ لا اظــن .
ــ لمــاذا لا تظــن ؟!
تساءل اسعد حانقا ،وبلهجة مشوبة بالهزء ، لكـــن حنّا لم يردّ بالطريقة ذاتهــا .
ــ لان الرجعيــة ..
قال بهدؤ مشفوع بابتسامة متفهمة ، واكمل :
ــ .. كما يجب ان تعرف.. لن تستسلم بالسهولة التي تتصورها !
ــ اعرف هــذا .
اجاب اسعد بحنق بيّن ،قبل ان يتمّ :
ــ .. ولا حاجة بك لتعليمي الف باء السياسة !
تذكّر حنا بأن اسعد لا يمكــن ان يكون موضوعيا في حواره ، الا في حالات نادرة جدا ، وحالتهم هذه ليست كذلك ، فردّ على حنق اسعد بهزة موافقــة من رأسه ،وانتقل بعينيه الى حيث كانت فائزة تحاول اثارة اهتمامــه بلفتات تفتقر الى الخبرة النسوية ، حتى اذا ما رأى اسعد ذلك ــ وهو الراصد المتيقظ لكل مــا يصدر عن فائزة ــ وجّه حديثه الى بولص بصوت اكثر من مسموع :
ــ اتصدّق يا بولص بأني تعرضت أربع مرات لموت محقق اثنــاء

خروجـي اليـوم .
وحدج فائزة بنظرة واعدة .
ـ ... مرة قبل وصولي حانوت البقالة الواقع في الشارع الثالث الموازي لشارعنـا .
ثم رفع صوتـه :
ـ ... وهو بعيد جدا كما تعلم .
ولان فائزة لم تلتفت اليـه .
« اللعينة .. تتجاهلني متعمدة !! »
قال لنفسه ، واكمل مخاطبا بولص دون ان يتملكه اليأس من جذب اهتمامهـا اليـه :
ـ المرة الثانية كانت داخل الحانوت الـ ..
لكن يد بولص امتدت الى مفتاح المذيـاع .
* .. ياطيرة طيري لوادينا ..
وعقّب على تصرفه قائلا برقّة يخالطها رجاء :
ـ نسمع اخبار البـلد !
فاتسعت حدقتا اسعد ، وتباعدت زاويتا فمه بابتسامة صفراء ، موافقة .

* * *

* نداء الى المواطنيـن كافّة :
الرجاء افساح المجال امام رجال الاسعاف والاطفاء للقيـام بواجبهم الانساني النبيل ، وعدم التعرض لهم بفتح النار على سياراتهم ..

* * *

رائحة الخطر تشمّ من الصوت المنفعل للمذيع .
ـ « لا وقف اطلاق نار ولا بطيخ !! »
قال اسعد ، وافلت ضحكـة مبتورة ، لم تجد تجاوبها اللازم لدى حنا ، فالتفت الى بولص .
ـ .. انما هي استراحة المحارب .. كما تسميها في لغة الصحافة .

القِسْمُ الثاني

١

بعد الهدوء النسبي الذي ساد منطقــة الشيّاح بــدأ البعض من المتواجدين في المخابيء بمغادرة اماكنهم بحثا عن طعام او مــاء ، فصرت ترى ــ بين الحين والحين ــ امرأة ، او رجلا يحثّ الخطو مسرعا الى جانب الجدران ، ليعــود بعد قليل ، محملا بكيس ورقي .

***

تلك الحركة التي اخذت تتزايد مــع مرور الــوقت بعثت شيئا من الحياة في الشوارع المحيطة ، على الرغم من الانقاض والجثث المنتنة ، وسرت بعدواها الى بولص قبل غيره من الباقين في السرداب .

ــ سأخرج !

قال ، ولمّا لم يجد تشجيعا من احد اقترب من اسعد هامسا في اذنه :

ــ هل تستطيع ان تحدد لي مكان البقالة بالضبط ؟!

وغمز بعينه ، ففهم اسعد على التو ما يهدف اليه محدثه .

الوسكــي ؟

التمعت عينا بولص ، وهزّ رأسه موافقا .

***

بناء على الوصف المفصّل الذي ادلى بــه اسعــد استطاع بولص الوصول الى حانوت البقالة دون عناء ، حيث فوجيء هناك بوجود جمهرة من الناس تزدحم على بــاب الحانوت .

وعندما عجز عن ان يدسّ هيكله الهزيل بين المتجمهرين ، اضطر الى الاكتفاء بالتوجه لسؤال احد الواقفين في مؤخرة الحشد •

ـ ماذا يحدث !؟

تساءل وهو يمسّ كتف الرجل من وراء ، قاصدا لفت انتباهه ، فاستدار الآخر •

ـ بولص !•• سلامات !

فاجأه الرجل بمعرفته له ، واضطر بولص الى الرد بسرعة غير متحمسة :

ـ سلامات !

من اجل ان يعود الى سؤاله الاول ، لكن أرشاك مُصلّح الاحذية، عاد وفاجأه ثانية :

ـ هل اصيب احد من سكان بنايتكم ؟

ـ لا •

اجاب بولص بضيق •

ـ نحن ايضا لم يُصب احد منا •

ردد ارشاك بفرح يكاد يكون طفوليا ، وهو ينقل ثقل جسده من ساق الى اخرى ، مادّا رقبته الى أمام ، كي يرى اكثر ، فاغتنم بولص الفرصة ، ووجه سؤاله :

ـ ما الذي يحدث هنا ؟!

ـ صاحب الحانوت يرفض البيع للناس •

اجاب ارشاك بتقريرية خالية من الانفعال •

« صاحب الحانوت !»

واحس بولص ـ على التو ـ بخيبة مريرة ، واستطرد محدثا نفسه بحزن :

« لماذا جاء الى حانوته الآن •• بالذات ؟! »

كان يؤمل ان يعود باربع زجاجات من الوسكي الاجنبي الفاخر ، دونما حاجة للدفع ، تماما مثلما كانت الحال مع اسعد •

ـ والحلّ ؟!

تساءل بولص من غير ان يخرج من جوّه النفسي ، فأجابه ارشـاك بعفويـة :

ــ هو ثائر •• لان بعض المجهولين نهبوا بضائع كثيرة من حانوتـه اثنـاء القصف •

فينفلت من فم بولص سؤال عفوي :

ــ وهل سيعود القصف ؟!

ــ ••••

لهجة التمني ــ غير الواعية ــ التي شابت سؤال بولص دفعت الآخر الى التطلع فـي وجهه بدهشة غاضبة ، ممـا اوحـى لبولص بضرورة المسارعـة في الابتعاد من امام مصلّح الاحذية •

***

* الرجاء من الجميع ملازمة منازلهم ، وعدم مغادرتها لاي سبب كـان ، وعلى الاخص اولئك الموجودين في مناطـق الاشتباكات ، لان الوضع الذي شهد انفراجا جزئيا صباح اليوم ، سرعان ما عاد الى التوتر بدءا من الآن •

على المواطنين التحلي بالصبر ريثما تتوصل الاطراف المعنية الـى اتفاق نهائي ، ولا بد من الاشارة هنا الى ان هـذا الاتفاق المنتظـر بات وشيكـا •

***

•• كذلك تجدر الاشارة هنا الى ان منطقة الشياح فوجئت ــ منـذ الساعة الواحدة ظهرا ــ بقصف كثيف ،مركّز ، بمختلف انواع الاسلحة، وعلى حين غرّة ، اثناء انتشار الناس في الطرقات • مما ادى الى سقوط عدد جديد من الضحايا الابرياء ، فكان ان اقفـرت الشوارع ، وعـادت منطقـة الشياح لتصير ــ خلال ثوان معدودات ــ منطقة اشباح •

***

حوالي الساعة الواحدة والنصف ، وفي الوقت الذي كان فيه اسعد يعيد ترتيب ضمادات جروح فخذيه ، وفمه لا يكفّ عن اطلاق الشتائم على

هيئة همهمات خافتة ، صدر عن بولص هتاف مفاجيء :

ـ هو ابراهيم على ما اظـــن !!

وابتعد خطوتين عن النافذة ، كي يفسح المجال لجسد زينب ، التـــي كانت قد انتفضت من مجلسها لتقفز الى جوار النافذة .

ـ ابراهيم لا غيره !!

رددت قبل ان يعلو صوتها بصيحة فرح غامر :

ـ ابراهيـــم ! !

لكن صيحتها ضاعت وسط دوي انفجارات جديدة ، بينمـــا تساءل بولص وهو يطل من وراء كتفهـــا :

ـ والمرأة التي معه .. من هي ؟!

٢

على الجانب المقابل للرصيف ــ في المكان الذي وقف فيه اسعد عند الفجر ــ وقف ابراهيم ملصقا ظهره بالجدار، والى جانبه وقفت جميلة .

ــ اللعنــة !!

ردد اسعد بصوت خفيض ،وهو يمعن النظر في زوجتــه من وراء زجاج النافذة ، واضاف بدهشة حاقدة :

ــ كيف جاءت ؟!

ثم اضطر للتنحي جانبا امام اصرار بولص للحلول محله .

ــ دعني اكلمهمــا !

قــال ، وبدأ يعالجقفل النافذة بهمّة وعجالة واضحتين ، ولمّا لــم يستجب القفل لاصابع يديه الهرمتين ، تطوّع حنا لمساعدته .

بعدما تمّ لهما فتح مصراعي النافذة ، حشر بولص وجهه داخــــل قضبانها ، وطفق ينتظر فسحة الوقت الممتدة بين انفجار وآخر ، ليصرخ :

ــ ابراهيــم !

الآخــر ــ على ما يبدو ــ سمع الهتاف ، فركّز نظراته على النافذة، واضطــر بولص للانتظار برهة اطول من الوقت ريثما تكف الانفجارات المتعاليــة ثانيــة .

ــ انحنوا قدر الامكــان !

صاح بأعلى صوته ، وانتظر .

ــ •• واركضوا باسرع مـا ••

افلت اسعد ضحكة ساخرة •

ــ نصائحك كادت تودي بـي !

ــ « اششى » !

قال بولص بلهجة آمرة ، وعاد الى الصراخ :

ــ •• وبخطمتعرج !

بعدها اطلق زفرة ارتياح ، ثم التفت الى اسعد ، وباللهجة الجادة الآمـرة ذاتهـا استطـرد :

ــ تلك امور تعلمناها في الجيش •

لم يخف اسعد تضايقه ،واجاب :

ــ وانا تعلمت اكثر •• ايام كنت في المقاومة •

فندّت عن فائزة ــ للمرة الاولى ــ جملة متسائلة تشوبها رائحـة التآمر ، وسط جرأتهـا ، وفرحتها بعودة ابيها :

ــ ولماذا تركت المقاومة ؟!

فالتفت اسعـد منبهتـا •

ــ المقاومـة !!

ردد باندهاش رافض ، وحاجباه يرتفعان الـى مداهما ، بينمـا تدخّلت زينب ، فزجرت ابنتهـا قائلـة :

ــ « اخرسي يا بنت !! »

***

المجتمعون وراء قضبان النافذة لم يفاجأوا برؤيـة ابراهيم وهـو يحادث جملية ، مستعينا بيديه ، على الرغم من عدم سماعهم له •

ــ هو يرشدها الى كيفية اجتياز الشارع •

قالت مارسيل ، فاعترض بولص :

ــ انا سبق وارشدتهما معا عن كيفية العبور ، لكنني اظنه ينصحها بالتريث اكثـر !

ــ لو انها •••

وكفّ اسعد عن الاتمام • اهتمامه الى جانب اهتمام الجميع ــ عدا

حنا الذي كان قد ذهب ليلازم عند باب السرداب منذ برهة ـ انشد الى ابراهيم ، وهو يركض محنيّ الجسم ، في محاولة منه لاجتياز الشارع •

مدخل السرداب لم يتمخض ، لا عن ابراهيم ، ولا عن حنا ، بيد ان ما دار بينهما من حوار سريع ••

ـ سلامات !

ـ سلامات !

دلّ على وصول ابراهيم سالما ، فتهلل وجه زينب ، وسبقتها ابنتها فائزة ناحية المدخل •

***

على اثر عبور ابراهيم تعرّضت مساحة الشارع المواجهة للسرداب لاطلاق نار مركز •

ـ ستموت جميلة لا محالة !!

غمغم اسعد بصوت مهزوم ، فعقّبت مارسيل على كلامه مصدّقة :

ـ هم يترصدون لكل جسم متحرك !

ـ موقعنا بالنسبة لهم هدف مكشوف !

قال اسعد ، وتلاه بولص موضّحا :

ـ انهيار البناية الكبيرة الواقعة عند طرف الشارع تسبب في انكشافنا لهم اكثر !

لكن ذهن اسعد على ما يبدو أوغل اكثر :

ـ أُقسم بالله •• هذه المرأة مجنونة !! •• والاّ فما الذي جاء بها في مثل هذا الظرف بالذات ؟! •• انا ••

ثم صمت على اثر لكزة من بولص •

ـ اسمع !

وانصبّ اهتمام الجميع على المرأة الواقفة ـ لصق الجدار ـ في الجانب الآخر •

ـ انتظري قليلا !

صاح ابراهيم من عند مدخل السرداب • عينا جميلة تنشدّان

مفزوعتين باتجاه بوابة البناية ، حيث يحتمي كل من حنا وابراهيم .
ــ لعلهــم ...
قالت مارسيل ، مشيرة برأسهـا ناحية حي عين الرمانة ، واتمت :
ــ .. لم يعرفوا بوجود شخص آخر يبغي اجتياز الشارع !
كانت حدة اطلاق النار قد خفّت الى حد ما ، وانتقـل هـدف الرصاص باتجاه مكان ابعد قليلا ، ومن المدخل تعالى صوت ابراهيــم بصيحــة ثانية ، مخاطبا جميلة :
ــ الآن !! .. بسرعة !!

***

« حدست هذا!! »
قال اسعد لنفسه بيأس ، وهو يغرز اسنان فكه الاعلى في شفتــه السفلـــى .
ثقل حركة جميلة . سمنتها .سنها . ذلك كله تسبب في عدم قدرتها على اجتياز الشارع ركضــا .
كانت قد تعثرت عند منتصف المسافة ، فتداعت ، لتتلقى ثقل جسدها بباطن كفيها ، في الحين الذي انطلق فيه وابل متلاحق من الرصاص .
ــ نامي على الارض !!
فكرة مفاجئة تداعت في ذهن اسعد ، وتجسدت صرخة هستيرية عاليــة .
ــ ... تظاهري بالمــوت
عيناها الجاحظتان تدوران في محجريهما ، لتنتقلا من بوابة البناية الى النافذة . جذعها لا يزال يستند الى ساقيها وذراعيها .
ــ .. نامي على الارض !
واحس اسعد كما لو انها معركته الخاصة .
ــ .. بسرعــة !!
الرصاص يصطدم باسفلت الشارع ، فيطيش ، مصدرا أزيزا متلاحقا
ــ .. تظاهري بالـ ..
لكن الرجفة العنيفة التي اجتاحت جسد جميلة ألجمت فم اسعد لثوان .
ــ الغبيّة !!

صرخ بصوت يشارف العويل ، واكمل مقهورا :

ـ اصابت نفسهـا !!

ومن خلل الدموع شاهد كوعيها وهما ينحنيان ببطء • صدرهـا يلامس الارض قبـل بقيـة اجزاء جسدها •

***

الجميع يزدحمون وراء النافذة • حنّا ـ وحده ـ بقي ملازمـا مكانه محتميا بمدخل البناية ، عندمـا بدأت حدة اطلاق النـار تخف تدريجيـّا •

ـ هي مـا زالت تتنفس !

هتفت زينب بانفعـال فـرح •

ـ وتنظر الينـا !

عقّبت فائزة •

ـ اصابتهـا ليست خطيرة على مـا يبدو •

قال ابراهيم واستطرد :

ـ لو انها لم تتعثر !

فالتفت اليه اسعد من غير ان يجفف دموع عينيه •

ـ انت السبب !!

قال وهو يضغط عضلات فكّيه بقوة ، وكأنـه يمنـع نفسه عن مهاجمـة ابراهيـم •

ـ انا ؟!

تساءل الاخر بدهشة حزينة رافضة ، لم تمنع اسعد عـن التصريح بحقـد اوضـح هذه المـرة :

ـ ومن جاء بها الى هنا سواك ؟!

ـ ••••

ـ هي تحرّك رأسهـا باتجاهنا !

صاحت فائزة ، فتدخّلت مارسيل موجهة كـلامها لكـل مـن اسعـد وابراهيـم :

ـ دعونا نسمع ما تقولـه جميلة !

***

عيون الجميع ، وآذانهم تنشدّ ـ منذ دقائق ـ الى الجسد المسجى فـي الشـارع .

ـ هي تبكـي !!

رددت فائزة بحزن، فسرت فـي جسم اسعد رعدة خفيفـة . وجه جميلة المعفّر بالتراب يميل جانبا باتجاههم . الهواء يعبث بشعرهـا الخشن ، فتبدو اشبه بجثة مضى عليهـا زمن ليس بالبعيد .

ـ اسمعـوا !

غمغمت مارسيل ، ومن الطريق وصلهم صوت جميلـة ، ضعيفا ، مرتعشـا ، فزعـا :

ـ ماذا افعل الآن ؟!

على الاثر سرت موجة فرح عارمة في نفوس المتزاحمين عند النافذة.

ـ اصابتهـا خفيفـة !

قال بولص ، وكفّه تضغط علـى كتف اسعـد بحنو بالـغ ، واستطـرد بيقينيـة :

ـ .. والاّ لمـا استطاعت ....

غير ان صيحة من حنّا ـ جاءت مـن الطرف الآخر للسرداب ـ وضعت حدّا لتحليلات بولص .

ـ ازحفي الـيّ !

فانتفض اسعد لدى سماعه حنّا ، وادار رأسه صارخا ، محذّرا ، بأعلـى صوتـه :

ـ لا يتدخل احد بيني وبين زوجتي !!

قبل ان يلتفت ناحيـة الشارع .. جميلة ، متمما بالارتفاع ذاته :

ـ لا تسمعي كلامه !.. تظاهري بالموت !!

٣

لان حنّا لا يهدف الى الاصطدام بأسعد ، سواء بطريق مباشر او غير مباشر ، فقد آثر الانصياع لصرخته :

ــ لا يتدخل احد بيني وبين زوجتي !!

على الرغم من تعاطفه الشديد وحزنه على تلك المرأة المصابة التي بقيت ــ بأمر زوجها ــ ملقاة على وجهها في منتصف الشارع على بعد امتار منه ، بيد ان كل ذلك لم يمنعه عن التوجه اليها بسؤال :

ــ تتألمين ؟!

ــ .....

الحيرة التي ارتسمت حزينة في عينيها سرعان ما سرت بعدواها اليه.

ــ اصابتك خطيرة ؟!

ــ .....

حيرته تتضاعف .

ــ اين أصبتِ ؟!

فتحت فاها كي ترد ، ثم عادت واطبقته .

ــ هل انت عاجزة عن الكلام ؟!

ــ لا .

اجابت بوهن ، مما طمأنه ، وشجعه على القول :

ـ الا تستطيعين تحديد مكان اصابتك ؟!
فجاء صوتها بعـد تردد قصيـر :
ـ بلـى •
ـ •••••
وكان دور حنّا ـ هذه المرة ـ ان يلوذ بالصمت • هو لا يجد ـ بينه وبين نفسه ـ تبريرا مقنعا لصمتها ازاء اصابتها ، لعل غرابة تصرفات زوجهـا انسحبت عليهـا •

* * *

التدني الوقتي لحدة اطلاق النار وانتقال هـدف الرصاص الـى مكـان آخر دفعا حنا للتفكير بالقاء نظرة اشمل علـى الشارع قبـل عودتـه الى الداخـل •
خطا نصف خطوة ـ لصق زاوية الجدار ـ خارج المدخل ، واطل برأسـه •
الطريق موحشة تمتد • المباني المصابة • الاخرى نصف المهدمة • واخيرا اكداس جدران المبنى الكبير الذي كان قائمـا عند طرف الشارع•
«كم من الاصابات الصاروخية المباشرة ؟! »
وعندما انتقل بعينيه الى الابعد ـ حيث تنكشف المسافات مـن فوق اكداس الجدران ـ خيّل اليه انه رأى شبح انسان في نافذة مـن نوافذ بناية عالية بعيدة،فسارع الى الاحتماء بالجدار ، وكلمة « قنّاص » تتداعى فـي ذهنـه •
« يا مصدر النيران !!»
في المرة التالية اطلّ بنصف رأسه ، ودقق النظر •
« عين الرمانـة !! »
واشعة الشمس تسقط على البناية البعيدة • زجاج النوافذ المغلقة يشعّ ، وكذا الشعر الاشقر للرجل الكامن في النافذة المفتوحة •
دقق النظر اكثر • بندقية •• او مـدفع رشاش •• لا يـدري بالضبط ، يسندها الرجل على قاعدة النافذة •
حديد البندقية •• الرشاش ـ اثناء حركة الرجـل بها ـ يلتمع ،

يشع" ، ولم يستطع حنّا التزام الصمت لمدة اطول •

ــ ابراهيــم !!

صاح ، دون ان يرفع عينيه عن الرجل •

***

ــ هل حدثت مضاعفات لجميلة ؟!

تساءل ابراهيم بلهفة حزينة ، لدى وصوله الى جانب حنّا •

ــ انظــر

قال حنا مشيرا باصبعه تجاه المبنى البعيد •

ــ مــاذا ؟!

العينان الحادّتان لابراهيم ، الذي اعتاد على قيادة الشاحنــات الكبيرة ليلا ما بين الكويت وبيروت ، سرعان ما التقطتا جسد الرجل •

ــ هذا هو سبب بلائنا اذن !!

ثم انتقل بعينيه الى حيث ترقد جميلة ، فانبجست في ذهنه فكرة ، واجه حنّا على اثرهــا :

ــ ما رأيك لــو ••

وابتسم ••• حنا ــ ايضا ــ كان قد واجهه قائلا في اللحظة ذاتها :

ــ ما رأيــك لــو ••••

***

عندما بدأ كل من ابراهيم وحنا يناقشان فكرتهما الهادفة الــى محاولة وضع حد للقنّاص الذي يتربص بهم ، كان اسعد ــ ساعتهــا ــ يراقب ــ من وراء النافذة ــ زوجته الراقدة غير بعيد عنــه ، فــي الخــارج •

الجميع ــ نزولا عند رغبته الشخصية ــ ابتعدوا عن النافذة ، ومن ضمنهم بولص ، على الرغم من ان الاخير لــم يستطع منع نفسه عــن ان يهمس في اذن اسعد راجيا ، وهو يستدير مبتعدا :

ــ لا خطر من زحفها الينــا !!

لكن اسعد ــ وهو يشعر للمرة الاولى باهمية دوره ــ آثــر ان يبقيهــا في مكانها حتى حلول الظلام •

في الليل تستطيع جميلة التحرك بسهولة ، بل انه يستطيع الخروج اليها بنفسه لمساعدتها ، دون ان يكونا هدفين مباشرين للرصاص .

الاخرون — حسب رأيه — ينظرون الى الامور عبر منظار ضيّق ، ينحصر ضمن معالجتها (الامور) في لحظتها الراهنة .

اما هو — وهنا يكمن الفرق — فينظر الى الامور بمنظار ابعد ، متحسبا لكافة الظروف والملابسات .

هم يحزنهم ان تظلّ جميلة ملقاة باصابتها في عرض الشارع . لكنهم لن يحزنوا — بشكل حقيقي — مثله لو انها اصيبت برشقة رصاص لدى صدور اية حركة عنها ، وعلى الاخص الآن ، في مثل ضوء النهار الساطع هذا .

القتلة يتربصون لكل جسم متحرك دون تمييز ، اليس الحل الامثل — لما هم فيه — ان يخادع القتلة .. ما دامت الحرب خدعة !!

***

وهو يراقبها عن قرب — بانتظار حلول الظلام — وُفق الى اكتشاف الكثير من اسباب نفوره منها .

شعرها الاكرت الذي لا لون له . انفها الكبير . فكاها البارزان ، الضخمان . وجهها المستطيل من غير اتساق . رقبتها القصيرة المكتنزة ، واخيرا : جسدها كله بترهله ، وعدم تناسقه . لماذا اجبره ابوه — وهو (اسعد) في زهرة شبابه — على الزواج بها .. « ابنة عمك » دونما التفات للمئات من الشابات الفلسطينيات الفاتنات !.. لنأخذ هذه الفتاة فائزة مثلا ، حتى وهي تعاكسه :

— لماذا تركتِ المقاومة ؟!

ما عاكسته هادفة الى اثارته ، الا بسبب من احساسها برجولته الطاغية . زينب مثلا .

— « اخرسي يا بنت !! »

نتيجة احساسها بهذه الرجولة هدفت — من وراء زجرها لابنتها — ان توقف الاخيرة عن الايغال معه اكثر .

بينما تبقى زوجته الحمقاء — على بشاعتها وكبر سنها — غير مدركة لقيمته ، وقوة شخصيته .

« ـ انت غبي كبير ! »

من انقذكِ من موت محقق الان ؟!

محاولتكِ الخرقاء في اجتياز الشارع ؟! .. ام حكمة اسعد بابقائك متظاهرة بالموت ؟!

الحماس يتنامى في داخله . لا بد له من الاخذ بزمام امور العائلة منذ الآن .

هذا الحدث غير المتوقع ـ الحرب .. اصابتها ـ سيكون مفتاح تعامله معها في المستقبل .

ثم دقّق النظر . وجهها المحتقن بالدم يميل الى اللون الارجواني . منتصف الشارع . الاسفلت . شمس الساعة الثانية والنصف ظهرا . العرق يتصبب من وجهها مختلطا بالغبار والدموع .

سيكون ـ بالنسبة اليها ـ درسا لن تنساه . ليت الوقت الممتد الى الليل يمتد اكثر ، لكي تأخذ درسا اقسى ، واطول . واوفى فائدة.

طيلة عمره معها كانت هي المتحكمة ، المتجبّرة ، الآمرة ، اما الآن ...

واحس بحركة انسان ما خلفه ، فالتفت . مارسيل تقترب لكي تلقي نظرة ، قبل ان تردد بلهجة فيها الكثير من التأنيب المندهش ، والادانة :

ـ من الجنون ان تظلّ تلك المسكينة ملقاة هناك !!

ووضعت عينيها في عينيه .

ـ ... ستموت هذه المرأة من جراء الشمس والفزع حتى لو لم تكن مصابة !!

احساس أسعد بالحماس ينحسر الى الداخل ليحل محله شعور بالذنب ، ويتمسك بوجهة نظره قائلا :

ـ لم يبق عن الليل كثير وقت !

الادانة تتبدى من عيني مارسيل بأشد .

ـ اذن .. فأنت تنوي تركها في مكانها حتى الليل ؟!

وقبل ان يجد اسعد الوقت الكافي للرد تدخلت زينب متسائلة بصوت راعش باك :

وما ادراكمـا بأنها ستظل حيّة الى المساء ؟!
التساؤل الباكي لزينب اشبه بصفعة مفاجئة سقطت على وجه اسعد:
الجارة الغريبة تتعاطف مع زوجته اكثر منه ، بينمـا يتلـذذ هـو بالمراقبـة !!
من يدري ؟! •• لعلها ـ كما قالوا ـ ستموت من جرّاء الشمس والفزع ، او استمرار نزف الدم ! !
همهم مع نفسه بكلمات غامضة ، ثم أطلق صوته :
ـ جميلـة
عينا جميلة تتشبثان بالنافذة ، وما هدف اسعـد الـى الاستسلام لالحاحهم باليسر الذي يتصورونه • اي قرار بخصوص زوجته يجـب ان يصدر عنـه •
ـ تتألميـن بشدّة ؟!
تطبق جفنيهـا ثم تفتحهمـا •
ـ اصابتك خطيرة ؟!
الحيرة في عينيهـا
ـ اين اصبت ؟!
ـ •••••
خيّل اليه انها تطالعه بغباء • يبذل جهدا كي يكبت حنقه •
ـ ما بـك ؟!
فتنفجر مارسيـل غاضبـة :
ـ ليس وقت استجواب !!
لكن اسعد يتجاهل غضب مارسيل ، ويستمر في صياحـه مخاطبا زوجتـه :
ـ بمـاذا تشعرين ؟!
صوتها ـ يصله ـ ضعيفا ، متخاذلا :
ـ عطشانـة !!
الفرح والحنان يتناوبان صوته :
ـ اصابتها ليست خطيرة !

قال مخاطبا مارسيل ، والتفت الى زينب .

ــ .. والا لما شعرت بالعطش وحده !

ثم عاد وحشر وجهه بين قضبان النافذة .

ــ هل تستطيعين الزحف ؟!

صاح ، وصوته يطفح بسعادة طاغيـــة . البادرة القاضية بمغادرة زوجته لمكانهـــا صدرت عنه ، لا عـــن غيره .

٤

ما ان أنهت جميلة زحفها باتجاه بوابـة العمارة حتـــى نهضت مستعيدة كامل حيويتها ونشاطها السابقين مما اثار استغراب اسعد •

« كأنهـا عجلـة !! »

حدّث نفسه وهو يتابع حركتها ، قبل سؤاله لها :

ـ اين أصبت ؟!

ـ •••••

وعندما عرف من مارسيل مكان اصابتها •

ـ سليمة •• اصابة سطحية في لحم الاليتين •

ادرك سبب احجامها الطويل عن الرد على أسئلته •

« خجل لا مبرر لـه ! »

وكان الرجال الاربعة قد اجتمعوا غير بعيد عن باب السرداب بناء على امر من جميلـة •

ـ لن اسمح لمارسيل برؤية مكان الاصابة ا ذلم تبتعدوا جميعكم !

ـ حتى أنـا ؟!

تساءل اسعد ساخرا ، وابتعد • بعد وقت قصير وصلهم صـوت مارسيـــل :

ـ الجرح صغير .. لا خطر من حدوث نزيف .

***

روح الدعابة تتملك اسعد . الفرح بنجاة جميلة ، ولانها زوجته دون سواه ، اذن لا مانع من استغلال المناسبة للبرهنة على رباطة جأشه من جهة ، ومحاولة ادخال السرور الى نفوس شركاء المحنة من جهة اخرى .

ـ يبدو ان الذين اطلقوا النار على جميلة استهدفوا اليتيها متعمدين !

قال ، وافلت ضحكة مرحة . سرعان ما اجهضت . الاخرون لم يشاركوه ضحكه ، بل ان الامر كان على العكس ، صار هدفا لنظرات استغراب شزراء من جانب ابراهيم وحنا . روح الدعابة ينحسر مفسحا المجال امام رغبة حاقدة بالمشاكسة . وهو يعرف علاقة ابراهيم بالمقاومة ، وكذا انحياز حنا لها .

ـ الصدفة وحدها هي التي انقذت حياة جميلة .

مهّد لما يدور في ذهنه ، واضاف :

ـ .. لو ان طلقا ناريا جاء في رأسها .. صدرها .. بطنها .. لماتت في التو واللحظة !

نقل نظرات ثعلبية مستفزة ما بين ابراهيم وحنا ، ثم بدأ هجومه المركز .

ـ .. انا بصفتي فلسطينيا لا اتوقع من السلطات اللبنانية ان تتولى حمايتي ، لكنني ادين المقاومة ..

وشحن صوته :

ـ .. ادينها لانشغالها بخوض حرب كان يجب ان توجه ضد اسرائيل ، وعدم تصديها للدفاع عني وعن عائلتي !!

قال كلماته مرصوصة ، مشوبة بالحقد ، وطفق ينتظر ردود الفعل .

حنا ـ بسبب من معرفته الشخصية المجرّبة لاسعد ـ اكتفى كما هي عادته من الرد بابتسامة راثية ، مجنّبا نفسه عناء خوض نقاش لا مبرر له .

ابراهيم .. وهو الذي سبق وتعرض لاهانة تبدو وكأنها متعمدة

من جانب اسعد قبل قليل ، عندما واجهه الاخير صارخا بحقد في بدء اصابة جميلة :

ـ انت السبب !!٠٠انت اتيت بها !!

انبرى للرد بهدوء ظاهري يخفي من ورائه انفعالا واحتقارا كبيرين :

ـ لو اخطأ شخص في مستواي التعليمي ، دون الثانوي ـ انا السائق ـ عند تحليله للاوضاع الراهنة فلا عتب عليه ، اما ان يجيء الخطأ من جانب انسان متعلم جدا (صحفي) وفلسطيني بالذات ، فتأويل الامر يدخل ضمن واحد من احتمالين : اما ان يكون ذلك المتعلم « الصحفي » حمارا ، او عميلا مدسوسا ٠

حدقتا اسعد تتسعان ٠

« كيف ؟! »

يزدرد لعابه بصعوبة ظاهرة ، عبر محاولة منه لتجميع افكاره ، بغية الرد ، لكن استطراد ابراهيم بالهدوء السابق نفسه منعه ٠

ـ ٠٠ اي مراقب نزيه للاحداث الراهنة ، سواء كان فلسطينيا او غير فلسطيني ، يستطيع من خلال متابعته ، وسماعه الاخبار ، ان يصدر حكما قاطعا ، لاردّ فيه ، مفاده : ان المقاومة لم تتسبب في اشعال نار الحرب ، وان هذه الحرب فُرضت عليها ، واجبرت غصبا عنها لخوضها ، دفاعا عن وجودها ، وايضا دفاعا عن وجود بعض الحمير ، والعملاء المندسين ، الذين ما يزالون يحملون اسماء فلسطينية ، يستفيدون من التستر بها ٠

العرق ـ غزيرا ـ يتصبب من جبهة اسعد ٠

« الى هذا الحد !!»

في الحين الذي اتسعت فيه ابتسامة حنّا حتى اصبحت جذلة ، وبدت الدهشة الحائرة على وجه بولص ٠

ـ ٠٠ ثانيا ـ وليكن في علم السيد الصحفي ـ ان المقاومة لا تعد هجوما لفئة او مجموعة ،كما قد يتبادر للذهن الحماري ، وانما

هي تتصدى لمؤامرة كبيرة تموّلها القوى الامبريالية ، والرجعية هنا ، الى جانب الدعم المطلق من اسرائيـــل .

« ها هم يعودون لتعليم اسعد الف باء السياسة !!»

وما توقع اسعد ان يتدخل حنا مضيفا ببرود اشبه ببرود ابراهيم :

ـ .. ثالثا ـ ولمزيد من المعرفة ـ حربهم ليست موجهـة ضدّ المقاومة حسب ، انمـا المقصود منهـا كذلك اضعاف وتصفية القـوى التقدميـة اللبنانيـة .

فتح اسعد فاه كي يرد ، لكن استطراد ابراهيم :

ـ .. رابعا ـ ولمزيد من معرفة اخرى ـ الجولة الحاسمة لهـذه الحرب لم تبدأ بعد ، فالاسلحة المتدفقة ، المختومـة بنجـمة داوود ، والمرتزقـة الخبراء في حرب الشوارع من عرب بدو ، ورجال عصابات أجانـب ...

« اسعد ليس بدويا !! .. ولا اجنبيا !! على الرغم فهم يتعاونـون عليـــه !! »

ـ .. خامسا : وقوع سكنهم في طرف منطقة الشياح ، مواجهين لعين الرمانة ، هو الذي جعلهم هدفا مكشوفا لنيران القناصة ، وجهـل السيد الصحفي بمراكز المقاومة المسلحة ، لا يعني عدم تمركزها في شياح الداخل ، وللعلم .. لولا وجود المقاومة المسلحة تسليحا جيدا لاجتيحت الشياح ، واستبيحت . ساعتهـا لن يكون بمقدور السيد الصحفي ـ فيما لو كان وطنيا ـ ان يردد ما قاله منذ قليل ، لانه سيكون في عـداد الموتـى ان شاءاللـه ..

كان اسعد قد آل الى حال لا يستطيع معها ان يظل واقفا بثبات ، وملتزمـا الصمت في الوقت نفسه .

ـ ... سادسا ـ وهذا لعلم السيد الصحفي اخيرا ـ ابراهيم لـم يأت بجميلة ، كما صرّح الاول ، بل ان الثاني التقاها عند ظهر اليوم ـ قبل تجدد القصف ـ في ساحة قريبة ، تشارك الكثيرين ـ ومن ضمنهم افراد المقاومة ـ في رفع ركام احدى البنايات ، من اجـل انقاذ الاحياء المطمورين تحت الانقاض . هناك رآها ، ومن هناك رافقته بالمجيء الـى

هنا ، ويظـن ابراهيم ان لا حاجة به للقول : جميلة ــ بسوقفها العملـي المشارك ــ اثبتت بما لا يدع مجالا للشك طيب معدنها ، علـى العكس تمامـا من السيد زوجها الذي اثبت بمـا لا يدع مجالا للشك كذلك ، انه ليس جديرا بها ، او بالاحرى...

* * *

وبطبيعة الحال لم يلق اسعد اسلحته ، ويستسلم بالسهولة التي قد تخطـر على البـال .

* * *

بعد عودته الى داخل السرداب مخذولا ومهموما ، واجـه اسعـد زوجتـه بسؤال غاضب :

ــ لمـاذا جئت ؟!

اذ انه لولا مجيئها في وقته غير المناسب لما حدث ما حدث ، واصبح اسعد هدفا سهلا لمحاضرة طويلة عريضة ، لا تخلو من تلميح بالاهانة .

فوجئت جميلة بسؤاله غير المتوقع ، فتطلعت اليه مندهشة ، واجابت عـاتبـة :

ــ جئت لأطمئن عليـك !

يسقط في يده . يصمت برهة قصيرة ، من اجل ان يبحث عن مبرر آخـر لادانتهـا .

ــ والاولاد ؟ !

تتذرع بالصبـر .

ــ تركتهم عند اهلـي .

يلوذ بالصمت لبرهة اطول من الاولى ، متطلعا بحقد فـي وجهها ، البحث عن مبرر للادانة ما زال دافعـه .

ــ قولي لـي ...

ويعلو صوته :

ــ ... اهناك أم لديها ذرة صغيرة من العقل تترك اولادهـا بعيدا عنها ، في مثل هـذا الظرف ؟!

ــ ماذا قلت ؟!

هتفت بحدة • ها هي جميلة تعود لطبيعتها السابقة في تعاملها معه •

ـ •• وهل هناك أب ••

صرخت ، واستدارت بكامل جسدها كي تواجهه ، مستطردة بأعلى :

ـ •• عاقل يطلب من زوجته ان تعرض اولادهما للموت ؟!

الدماء تفرّ من وجه اسعد •

ـ انـــا ••

كان بصدد توضيح وجهة نظره الاخرى • هو لا يقصد ما تهـــدف اليه ، لولا مقاطعتها الصارمة :

ـ انت مجنـــون !!

فلم يجد بدّاً سوى الاستدراة على عقبيه •

ـ تعـــال !!

لكنه يتجاهل صيحتها الآمرة ، ويتجه صاغرا الـــى حيث يجتمـــع الرجال ، بينمـــا راح فمه يغمغم سبابا خافتا •

٥

أمر يبعث على الخجل الشديد ان تصاب في هـذا المكان بالذات •
يضاف الى ذلك عدم قدرتها ان تجلس بشكل طبيعي ، او بالاحرى عجزها عن الجلوس منتصبة او مائلة ،اذ ان عجيزتها فـي الحـالتين ستلامس الارض ، ممـا يتسبب لها بألم حاد مـن جهة •

ـ وهناك احتمال تجدد النزيف !

كما افادت مارسيل من جهـة اخـرى •

ـ لو كانت لدينا ضمادات !!

واكتفت مارسيل بتنظيف الجرح ، مستعينة ببعض ما توفر لديهم من ميـاه معدنيـة •

ـ بمجرد توقف القصف سأذهب بصحبتك الى المستشفى !

قالت مارسيل ثالثة ، واستطردت :

ـ وحتى لو استمرت الحرب اياما اخرى ، فلا خطر من حـدوث مضاعفات ، لان الجرح سطحي ، وجسدك ـ والحمدلله ـ متين وشاب •

ـ شـاب ؟!

تساءلت جميلة بسخرية حزينة ، واضافت :

ـ انت طيبة !

* * *

اليس من غرائب الصدف ان تصاب هي ، ويصاب زوجهـا فـي

يــوم واحــد ؟!

ــ اصاباتي بسيطــة •

قال اسعد موضّحا ، ردّا على سؤالها :

ــ ما هذه الضمادات ؟!

ولانهما اعتادا على المشاحنات اليومية ، وبسبب من الظرف الطارىء اغفــلا موضوع الاولاد •

كانت الشمس على وشك المغيب • العتمة بــدأت تعمّ السرداب ، وقال اسعــد موضحــا :

ــ فجر اليوم خرجت لجلب الماء والطعام ، وبينمــا انا فــي طريق عودتي تعرضت لاطلاقات غزيرة من مدافع رشاشة ، بيد اني كنت اسرع بديهة منك ، فبادرتُ الى الارتماء على الارض ، متظاهرا بالموت ، ومــن سوء الحظ كانت الارض مليئة بنثار الزجاج مما سبب اصابتــي فــي فخــذي •

ــ الجروح تؤلمــك ؟!

تساءلت ، فأجاب من غير مبــالاة :

ــ قليــلا •

وجرحها هي يكاد يشلّ حركتها • في البــدء اضطرت لان تظــل واقفة ، قبل ان تستسلم لالحاحهم ، فتضطجع على بطنها صاغرة •

* * *

منطقة الجامعة العربية ــ حيث كانت جميلة تقيم لدى اهلها منــــذ صباح اليوم الاول للاشتباكات الاخيرة ــ لم تتعرض لمثل هــذا القصف والدمــــار •

بل انها (المنطقة) كانت في مأمن يكاد يكون تــاما ، لــولا بضع اطلاقات ، من مدفع ما ، سقطت في الشارع •

كثافة الفدائيين بصورة خاصة ، والفلسطينيين الــى جانب العــرب الموجودين بصورة عامة ، جعلت من الجامعة العربية منطقة شبه آمنة ، او « منطقة محررة » كمــا يتناقل الشباب فيما بينهم متفائلين •

لهذا السبب ترى حياة الناس هنــاك اقرب الى الطبيعية ضمــــن

حدود المنطقة ، خلال ايام الاحداث .

وكان بأمكان جميلة ان تظلّ مع اولادها هناك ، ريثما تستقر الاوضاع ، بيد ان اصوات الانفجارات ،ودخان الحرائق ، وما تسمعه من اخبار يتناقلها شهود عيان ، وتخصّ منها ما يدور حول مكان تواجد زوجها .

* لا يوجد في الشياح بيت الا واصابته قذيفة ، او بالاحرى مجموعة قذائف .
* الكثير من البنايات تهدمت .
* الجثث في الشوارع وتحت الانقاض .
* الباقون على قيد الحياة من اهالي الشياح سيموتون خلال يومين او ثلاثة من جرّاء العطش والجوع .
* خطر انتشار الاوبئة يهدد الشياح .
* الكهرباء . الخبز . عين الرمانة بسبب قربها من الشياح .

القذائف بالمئات ليلا ونهارا . القنّاصة . الضحايا الابرياء من فسطينيين ولبنانيين . افراد المقاومة ـ هناك ـ يتصدّون ، ويصدون ..

تلك الاخبار هي التي دفعتها للمسارعة بالتوجه الى منطقة الشياح منذ الدقائق الاولى لوقف اطلاق النار صباح اليوم .

* * *

الطريق مشيا على الاقدام . الناس :

* منطقة المسلخ ازيلت من الوجود !

الجزع . اللهاث .

ـ والشياح ؟!

خطواتها اقرب الى الهرولة منها الى المشي . الاجهاد . الخوف . القلق . من يدري ...

« لعل اسعد .. »

لكنها تسارع لطرد خيالاتها .

« لعله لم ... »

وما كان لقلقها وفزعها ان يزايلاها لولا التقاؤها ـ عند حدود

الشياح ـ بارشاك مصلّح الاحذيـة ٠

ـ سلامـات يا جميلـة !

فالتقطت انفاسهـا ٠

ـ سلامـات !

ولم تخفف من سرعة سيرها ، فلحقها صوته :

ـ لم يُصب احد من سكان بنايتكم ٠

قدماها تكفّـان ٠

ـ صحيح !!

الاعياء يطبق على ركبتيهـا ٠

« اسعـد حيّ ! »

ثم تهالكت على الرصيف ٠

ـ انت مريضـة ؟!

سأل ارشاك وهو يقتـرب ٠

ـ لا ٠

اجابت لاهثة ، واستطردت :

ـ هل رأيت اسعـد ؟!

ـ رأيت جاركم بولص قبل قليـل ٠

* * *

الشيّاح ليست الشياح ٠ بعدمـا اطمأنت على اسعد تستطيع ان ترى ٠ كل الوصف الذي سمعتـه لا يعطي صورة قريبـة عـن واقـع الدمـار والمـوت ٠

ـ منطقتكم أوفر حظا من منطقة المسلخ ٠

قال لها احد شباب المقاومة،وهو يراها واقفة مبهوتة ، ازاء رتـل من الجثث ، التـي كان يجري رصفهـا قرب جدار نصف متهدم ٠

ـ ليس من السهل التعرف على هوياتهم !

ردد الشاب مشيرا الى الجثث المتنفخة ، واتم بصوت متعاطف رقيق :

ـ ان كنت تبحثين عن شخص معين ٠٠

ـ فاجتاحتها رعدة حادّة كادت تفقدها توازنها ، لدى تصورها ان يكون اسعد مرصوفا .

ـ لا .

اجابت مفزوعة ، وسارعت مبتعدة .

٦

الناس بوجوه قاتمة ، ونظرات فارغة ، الا مـن الاحساس بوطـأة المأســاة .

طوابير طويلة من البشر المطأطئي الرؤوس تقف منتظرة دورها امام ابواب عدد محدود من حوانيت البقالة ،صادف الحظ اصحابها ، فسلمت مـن النهـب .

الشوارع بمعالمها الجديدة تتفرع ، وعند ساحة خلفية صغيرة ، غير بعيد عن مكان سكنهم رأت حشدا ، خليطا من الرجال والنساء وشباب المقاومـة ، يعملون على رفـع كدسة هائلـة من الانقاض .

ـ بسرعـة !! .. بسرعـة !!

ـ من هنا !!.. تعالوا من هنا !!

ـ نحن بحاجة لمزيد من الناس كي يساعدونا !

صيحات متعالية . لاهثة . متداخلة . تنبعث عن الحشد . وعندما اقتربت اكثر ، وصلت سمعها صيحات اخرى تختلف اختلافا تامـا عمّا ألفت سماعـه .

« يا الهـي !! »

همهمت ملتاعة ، وبرودة غريبة ، متنملة ، تسري في جسدها ، لدى سماعها صرخات استغاثة مخنوقة .عويل اطفال ونساء وصياح رجال ميت،

الصدى ، ينبعث من تحت الانقاض ، يصلها وكأنه قادم من مكان بعيد ، بعيد جدا . دققت النظر بين الاحجار ، بمحاولة لا واعية منها للنفاذ الى ما تحت الركام .

ـ هيا .. ابذلوا مزيدا من الجهد !!

هتفت احدى النساء القريبات منها .

* * *

وهي تشارك في رفع الانقاض التقت بابراهيم .

ـ متى عدت من السفر ؟

فأجابها بكلمة واحدة :

ـ الآن .

لكن انشغالها المحموم بالعمل في رفع الانقاض منع ذهنها عن استيعاب :

« ابراهيم لا يعلم شيئا عن عائلته »

ولم تراودها فكرة ان تقول له :

ـ ارشاك خبّرني : لم يُصب احد من سكان بنايتنا .

* * *

وهي تتعاون مع ابراهيم على اخراج طفل سليم من بين فجوات ركام الاسمنت والحديد بعد زهاء ساعتين من لقائها به قالت له بصوت خفيض :

ـ مبروك سلامة زينب والاولاد .

كان الاحساس بالانتصار على الانقاض يشملها ،فتطلع اليها ابراهيم بعينين تجسّدان عرفانا بالجميل كبيرا ، ولم يسألها التفاصيل .

* * *

وعندما تجدد القصف ـ مما اضطر غالبية الناس الى الانفضاض متراكضين نحو السراديب ـ بقي ابراهيم الى جانب افراد المقاومة يعملون وسط الانقاض ـ تحت وابل القصف ـ حتى تمّ لهم انقاذ آخر الاحياء المحتجزين .

ابّان القصف تساءلت جميلة مع نفسها :

« اين اذهب ؟! »

ابراهيم ــ على مــا يبدو ــ ادرك حيرتها • صاح بها :

ــ اركضي الى اقرب سرداب !

ــ •••••

ــ هيــا اسرعــي !!

الناس انفضوا • الشوارع اقفرت • الخــوف • دوي المدافــع • الانفجارات • أزيز الصواريخ • الرعب • ولم تجد جميلة غير ان تحتمي لــدى اقرب جــدار •

***

لكن ابراهيم الذي صحبها معه في طريق عودته الى هنا ، جاعلا من ظهره جدارا لحمايتها ، لم يفكّر باصطحاب زوجها في المهمة التي ينوون ـ هو وحنا وبولص ــ تنفيذها الليلــة •

هي تعرف : « تصرفات اسعــد تتسم بالتهور » بيــد ان شيئا من التوجيــه • النصح • الانضباط • سيأتي ببعض الفائدة ، لا بدّ •

ايام الاحداث ــ وعلى الاخص هذا اليوم ــ علّمتها : ان لا مكــان لانسان محايد في مثل هذا الظرف بالذات •

وان تقف متفرجا في الوقت الذي يتعرض فيه اخوتك للافناء معناه : « انت تشارك بشكل وبآخر في افنائهم » •

لو لم تكن جميلة مصابة ، ولو كانت مصابة في مكــان مــا غير اليتيهــا •••

ــ اسعــد !

همست بصوت يشي بالخطورة • كان يجلس على بعد يسير منهــا ، وعندمــا التفت اشارت اليــه •

ــ تعــــال !

فزحف مقتربــا •

ــ ماذا تريدين ؟!

لهجته تنمّ عن احساس بالضيق • كانت لا تزال مضطجعــة علــى بطنهــا ، بسبب جرحهــا •

ــ أنت ذاهب معهم ؟!

تساءلت ، وهي تشير ــ مستعينة برأسها ــ باتجاه ابراهيم وحنا وبولص ، حيث كانوا قد عادوا الى باب السرداب للتأكد من موقع مكمن القنّاص للمرة الاخيرة .

ــ .. سيأخذونك معهم ؟!

ــ لا .

اجاب ، وابتسامة ساخرة ترتسم على فمه .

ــ هم مجانين !

عاد للقول ، واضاف بثقة لا تقبل النقض :

ــ يظنون : القضاء على قنّاص واحد ــ هذا فيما لو نجحوا ــ سيضع حدا حاسما للحرب القائمة !!

فتطلعت اليه جميلة برثاء حزين .

ــ انا واثقة : « انت غبي كبير » ، لكن الذي يدهشني : انك تجيد ــ بقدرة مذهلة ــ تحليل الامور بطريقة تسيء بها لنفسك !

عضلات وجه اسعد تختلج .

« ماذا ؟! »

ثم يغمغم بعد ثوان من الصمت المستوفز :

ــ الله يسامحك !

ــ ويسامحك !

ردت بسرعة ،واتمت :

ــ لماذا لم يشركوك معهم ؟!

يهرب بعينيه عن وجهها .

ــ لا ادري .

شيء من الحدّة ينتاب صوتها :

ــ تدري .. وتغالط !!

ــ .....

ولمّا لم يأتها ردّه ، عادت تقول :

ـ هل عرضت عليهم فكرة ذهابك معهم ؟!

الخذلان فـي صوتـه :

ـ سيرفضون عرضي !

الغضب خانقا يطبق على حنجرتهـا :

ـ هل عرضت عليهـم ؟!

الانهـزام في اجابتـه :

ـ لا !

٧

الفكرة التي خطرت في ذهن حنا اثناء رصده لنافذة المبنى الواقع في الحي الآخر « قنص القنّاص » لم تتخذ طابعها التنفيذي الجدي منذ البدء • فالفكرة « الخاطرة » لدى ورودها في الذهن للمرة الاولى لم تتعد حدود الطموح ، او بالاحرى الحلم بالتنفيذ ، اذ ان عملية التسلل من هذا الحي الى ذاك ، ومواجهة عدو مسلّح ، كانت اشبه بما يُرى في بعض افلام الحرب العالمية الثانية •

عدد قليل من الجنود يتسللون عبر خطوط الالمان • يتعرضون لمغامرات مثيرة ، قبل ان ينجحوا في تنفيذ المهمة الموكلة بهم • نسف طرق امدادات • تفجير مخازن وقود وذخيرة • تدمير انشاءات • سدود • ليعودوا بعدها الى قواعدهم سالمين •

يضاف الى ذلك ان خبرة حنا العملية تكاد تنحصر في العمل السياسي الدعائي منه والتحريضي ، عدا خبرة محدودة ــ أربعة اسابيع من التدرب على استخدام السلاح ــ حصل عليها صيف السنة الماضية ، بتوجيه من التنظيم ضمن فصائل الحرس الشعبي ، في الجنوب •

بيد ان الدراسة المستفيضة للفكرة بينه وبين ابراهيم من جهة ، الى جانب اشراك بولص ــ بعد ذلك ــ من جهة اخرى ، لم تدخل تلك الفكرة في حيز امكانية التنفيذ فقط ، بل تعدّتها الى ما هو أبعد ، الضمان بنجاح مؤكد •

ـ الرصاص الذي يستهدفنا خاصة يأتي من تلك النافذة !

قال ابراهيم ، واضاف :

ـ ذلك القنّاص يتخذ من مكمنه موقعا ستراتيجيا يشرف علينـا ، ويستطيع عن طريقه ان يستهدف كل حركة من حركاتنا •

ـ سيتصيدنا واحدا واحدا بمجرد مغادرتنا السرداب ، ولعله سيفعل حتى في حالة وضع قرار وقف اطلاق النار موضع التنفيذ •

ـ هذا احتمال وارد ،فمثل هؤلاء العملاء •••

كانا ما يزالان واقفين ، يحتميان بالجـدار عنـد مدخـل البناية ، وعيونهمـا على النافذة البعيدة •

ـ لو انتظرنا الى مـا بعد حلول الظلام ، وسلكنا ـ متسللين ـ طريقـا فرعيـة •••

فقاطعه حنـا متسائـلا :

ـ وماذا عـن السلاح ؟!

* * *

وهما يستفيضان في بحث امكانيات التنفيذ قال حنا موضحا :

ـ عن تحديد موقع البناية بالنسبة للحي ، ومعرفة طبيعة ما حولها •• بولص يفضلنا جميعا ، بحكم مهنته ،التي تحتّم عليه التجول المستمر •

ـ انت علـى حـق •

اجاب ابراهيم ، وصمت لثوان مفكرا

ـ ما رأيك •• هل ندعوه ؟!

فردّ حنا على الفـور :

ـ ندعـوه •

* * *

الانتشاء العسكري الصارم يأخذ مداه لدى بولص •

ـ ليس فقط في تحديد المكـان !

قال ، وبريق خاص ينبعث من عينيـه الضيقتين •

ـ •• وانما فيما هو اكثر ايضا •• ارجو ان لا تغفلوا جانب خبرتي العسكريـة الطويلـة !

ـ « ولـو » !

هتف حنا مشجّعا باخلاص ومرح صادقين ، في الوقت الذي اكمل فيـه ابراهيـم :

ـ ستشارك معنا قدر طاقتـك .

فعقد بولص حاجبيه الكثّين منفعلا .

ـ ما الفرق بين طاقتي وطاقاتكم ؟!

ـ لا فـرق .

اجاب حنا ،ويده تربّت على كتف بولص ، واضاف :

ـ دعنا نبدأ بموقع البنايـة اولا !

الحزم فـي سؤال بولص :

ـ ايـة بنايـة ؟!

* * *

وعندما تكلّم بولص افاض .

ـ البناية التي يتحدثون عنها تقع على مرتفع من الارض ، وتشرف ، من الخلف على الشارع العام الذاهب الى الشـام .

بامكاننا الوصول اليها من منافذ متعددة ، وعلى الاخص انها ببابين كبيريـن . الاول رئيسي امامي ، والآخر جانبي خلفـي ، يطلّ علـى المنحـدر .

لو اخذ رأي بولص بهذا الخصوص ، لأوصى بأن يتمّ التسلل الى المبنى عن طريق الباب الرئيسي ، فهـو مأمون ، والبوّاب القائم عليـه متزوج حديثا من فتاة تصغره بسنوات كثيرة ، اما الباب الجانبي ، فهـو قريب جدا من نقطة مستحدثة لرجال الدرك ، اضافـة الى بوابة الاعزب « اليـاس »

❋ ملاحظـة لبولص :

ـ افضل وقت يناسب التنفيذ هو الساعة التاسعة ليلا .

فتساءل حنـا :

ـ لمـاذا ؟!

ـ المعنيون ليسوا عسكرا نظاميا ، لهذا تراهم ينشغلون في ساعات

الليل الاولى بالعشاء والحديث وما شابههما ، بسبب استمرار اطمئنـان النهار ، حتى اذا مـا تقدّم الليـل فرض عليهم خوفهم من الظـلام حراسة متيقظـة ومستمرة الى الفجـر •

فعلّق حنـا :

ـ رأي وجيـه •

وعقّب ابراهيـم :

ـ جدير بالدراسـة •

فرحة طفولية غامرة تنبعث من عيني بولص •

ـ لست غريبا على حيّ عين الرمانـة •

ـ •••••

وما احس بولص بالخذلان بسبب من عدم اهتمام الشابين لسماع كلمـاته الاخيرة • كانا منشغلين بمناقشة نقطـة مهمّة ضمن الخطة •

***

ـ عملية التسلل يجب ان لا تتمّ باختراق مباشر عبر الشيّاح ، لان جميع مسالك الشياح ـ المؤديـة الى الشارع العام الفاصل بين المنطقتين ـ تخضع لمراقبة دقيقة من جانب قناصتهم •

قال حنا ، وعقّب ابراهيم متسائلا بحيرة :

اذن ؟!

فكانت فرصـة بولص كي يظهر خبراته •

ـ المسألة هيّنة جـدا •

الشابان يتطلعان اليه •الزهو العسكري •

ـ ••• باستطاعتي اصطحابكم الى حيث تشاءان ، عبـر طريـق جانبيـة تدور حول الشياح من الخلف ، وتنتهي عند حديقة الكنيسة •

يحصر ما بيـن حاجبيـه •

ـ •• فاذا تخطينا سور حديقة الكنيسة ـ وهذا ممكن ـ صرنا على بعد خطوات معدودة من هدفنا •

ـ سور حديقـة ! !

ردد ابراهيم بارتياب وهو يتفحص جسد بولص الهزيل •
الاحتجاج في صوت بولص :
ــ لا تخش شيئا ! •• بمقدوري تخطي اسوار عشرات الحدائق بسهولة ، تلك امور تدربت عليها كثيرا ايام الجيش •

٨

تظل جملة من امور اخرى مهمة ، لا يمكـــن تجاوزهـــا بحال من الاحوال ، ان كانوا جادين ليس في بحث الموضوع وحسب ، وانمـــا في التنفيـــذ أيضـــا •

ـ لنفترض اننا وصلنـــا بســـلام ••

قال حنا • كانوا ما يزالون واقفين في المدخل ، غير غافلين عـــن رصد النافذة البعيدة ، واكمـــل :

ـ ••• دخلنا المبنى بسلام ••

سادت لحظات من الصمت المستوفز ، قبل ان يستدير حنا ليواجـــه بولص ، مستطردا بنفس واحـــد :

ـ •• فكيف سنوفق لمعرفة الغرفة التي يحتمي بهـــا القنّاص ، فنصل اليه من داخل المبنى مباشرة ، دون ان نتخبّط في غرف اخرى ، فنعرّض انفسنا لمخاطـــر نحن ••

وكفّ • بولص الذي كان فاغرا فاه ، دلّل على انه لـــم يستوعب بعـــد ، مما اضطـــر حنا الى طرح وجهة نظره باسلوب آخر !!

وجه بولص يتهلـــل •

ـ هذه مسألة هينـــة •

اجاب بثقة ، ولما جوبه باندهاش الاثنين استطرد بثقة اكبر :

ـ اذا حدّدنا موقع النافذة بدقّة ، استطعت ان احدد لكم موقـــع

كل من الشقة والغرفة بدقة مماثلة •

ــ كيف ؟!

سؤال صدر عن ابراهيم ، فالتمعت عينا بولص •

ــ المبنى الذي يتحدثون عنه اشبه بمجمع تجاري يضمّ في ادواره الخمسة الاولى مكاتب الشركات ومؤسسات ومحامين ، اما الطوابق الثلاثة الباقية فهي عبارة عن شقق سكنية •

وبولص بحكم تردده الدوري على المبنى (تذاكر اليانصيب) يكاد يحفظ خريطته الداخلية عن ظهر قلب •

ابراهيم وحنا يتابعان كلامه باهتمام •

ــ •• من حسن الحظ ان النافذة التي هم بصددها تقع في الطابق الخامس •• بمعنى آخر : ضمن الادوار التي كثيرا ما ارتادها بولص •

حنا يهزّ رأسه موافقا ، بعدما اعاد النظر الى المبنى •

ــ •• وانت تغادر المصعد الى الطابق الخامس يواجهك باب غرفة الخدمة الخاصة بالطابق •

على يسار الباب ثلاث شقق تطل على المنحدر ، تقابلها ثلاث اخرى تطل على الشارع ، وعلى يمينه ثلاث بثلاث ايضا ••

ابراهيم وحنا يتبادلان نظرات منسجمة •

ــ •• ولان كل شقّة تواجهنا من هنا لها ثلاث نوافذ فباستطاعتنا •••

لكن حنا قاطعه :

ــ هي النافذة العاشرة من اليمين •

يضيّق بولص من فتحة جفنيه مفكرا ، قبل ان يهتف بفرحة اكتشاف :

ــ والعاشرة من اليسار •• أأنا مصيب ؟

ــ مصيب •

اجاب ابراهيم ، فتفتق فم بولص عن ابتسامة سعيدة واسعة وهو يردد بثقة لا تقبل الشك :

ـ القنّاص يتخذ من غرفة خدمة الطابق مكمنا له •

***

على أثر ذلك انتقل الجميع الى الداخل ، واذهانهم مشغولة بكيفية تدبير السلاح اللازم •

قال ابراهيم وعيناه على وجه زينب :

ـ لدي مسدس اوتوماتيكي صغير •

فبان الاهتمام في وجه زينب ، وقالت :

ـ ما زال موضوعا تحت طيّات ثيابك ، في الدولاب •

ـ والاطلاقـات ؟

ـ انا اعرف مكانهـا •

أجابت فائزة بحماس ، واتمت متوجهة لأبيها بلهجة فيهـا الكثير مـن التوسـل :

ـ هل اذهب وآتيك بهـا ؟!

ـ ليس الآن •

قال ابراهيـم •

ـ ••• الظلام اكثر أمنـا •

***

ـ ايام كنت في الجيش كان لديمسدس فرنساوي كبير يخصّني، اضافة الى السـلاح العسكـري •

اطلق سعلـة مبتورة •

ـ •• العسكري استعادوه حين احالوني على التقاعد •

الحزن يتسرب الى صوتـه :

ـ •• الفرنساوي اضطررت لان ابيعه ذات ليلـة بثمن رخيص • ليرات معدودة • مكسيم صاحب البار هو السبب ••

قال لي : اما ان تدفع ماعليك •••

فأفلت حنا ضحكـة قصيرة مشاركـة ، وهو ينقل نظراته مـن وجه بولص الى وجـه أمه •

ـ لدينا مسدس صغير يخصّ والدي ..

***

بعدما تنحنح اسعد مرات عديدة :

ـ اولا : هو يغتنم فرصة الحديث عن السلاح ليتقدّم باعتذاراته الرفاقيّة !

حنا وابراهيم يتبادلان نظرات الدهشة .

ـ .. ان ارادوا الحقيقة : اسعد ما كان يعني ما بدر عنه من كلام ، ساعة كانوا عند باب السرداب .

بولص يهزّ رأسه موافقا .

ـ ... انفعاله الشديد ـ غير الطبيعي ـ بسبب ما تعرضت له جميلة من موت يكاد يكون محققا هو المحرّك الاساسي لكل الذي بدر عنه .

الاهتمام في وجه بولص .

ـ ... تلك الدوافع مجتمعة أدّت الى طغيان العاطفة العائلية ـ وهذا ما يجب ان لا يحدث ثانية ـ على الفكر الثوري لفترة قصيرة .

بولص يفغر فاه .

ـ .. لا أحد ـ كما يظن اسعد ـ يسعى الى التشكيك بوطنية اسعد وحوافزه . وما اعتزاله للعمل الفدائي الا نتيجة منطقيّة حتمية لموقف عقائدي محض ، لا علاقة له بالحسّ الثوري .

بولص يصرف النظر عن السماع .

ـ ... فعليه ـ وليس بدفع من زوجته ، كما قد يتبادر الى الذهن ـ هو يعرض عليهم ،ويلحّ ان ينضم الى مجموعتهم العاملة في الارض اللبنانية .

الاهتمام يعود حائرا الى وجه بولص .

ـ ... ثالثا : فيما يخصّ السلاح، هو يمتلك سكينا حادة ، ذات طعنة لا تخيب .

بولص يبتسم للمرة الاولى ٠

ـ ٠٠ رابعا ٠٠

وتبدّى الاحساس بالأهمية والخطورة في لهجة اسعد اثناء اتمامه :

ـ ٠٠ لا بد لنا ـ قبل كل شيء ـ ان نتفق على : من منّا سيتولى قيادة مجموعتنا الانتحارية هذه !

٩

كان اسعـد قد اندفع بحماس موضّحا وجهة نظـره الخاصـة بالقيـادة :

ــ لا بد لقائد مجموعتنا ان يكون على المام واسـع برسم خطط هجومية ، تكون متناسبة مـع حدود الواقع ، حسب امكانياته المتمثلـة بالاشخاص من حيث النوع والعدد ... ومتوازية مع السلاح من حيث الكمّ والقدرة ، دون ان تغيب عن ذهنه نقطة مهمّة جدا ..

وتطلّع في من حولـه .

ــ .. الانسحاب ،او بمعنى آخر أدقّ : عودة جميـع افـراد المجموعـة سالمين ، الى جانب ضرورة تسمية الشخص الـذي يتولـى عمليـة تغطيـة ...

ــ اختصر !!

قاطعه ابراهيم بنفاد صبر بادٍ ، فارتبك استرسال اسعد للحظات .

ــ ما أعنيه باختصار . لا بدّ لقائـد مجموعتنا ان يكـون مثقفـا اولا ، وفدائيا .. لا تنقصه الخبرة ثانيا .

ــ لكي تطمئـن ...

قال حنا ، وضحك مستطردا :

ــ ... لن نكلـّفك مسؤولية قيادتنا .

فارتجفت شفتا اسعد ، واصطبغ وجهه بالدم ، في الحين الـذي تداعى فيه سؤال حائر امام ذهن ابراهيم :

ـ لماذا يصرّ هذا الرجل على الاساءة لنفسه لدى كـل فرصـة تسنـح لـه ؟!

* * *

نادرة جدا هي المناسبات التي يلتقـي فيهـا ابراهيم بنماذج مـن المتعلمين المتاجرين بالكلمات ، على شاكلـة اسعد •

ولانه ـ بسبب من طبيعته الشخصية ، وطبيعة عمله ـ غير مؤهل لاقامة ايمّا علاقة بواحد منهم ، نراه سرعان ما يسقطهم من حسابه خال ابتعـاده عنهـم •

ولو انه رجع لسنوات جيرته مع اسعد ، وهي كثيرة ، لاستطاع ان يحصر المرات التي تبادل فيها الكلام مـع الاخير ، بمرات ثـلاث او اربـع •

احداهن كانت قبل اشهر ، عندما أبدى الرجـل استعداده لتدريس فائزة دون مقابل ، على امل اتمامها لدراستها وهي في المنزل •

بيد ان الرفض العنيف الذي جابهت به زينب الفكرة ، دفع ابراهيم لان يشـك بنوايا صاحب العرض •

ـ هل تعتقديـن ••

فبحثت بعينيها عن ابنتها فائزة •

ـ لا استبعـد •

الغضب يتنمّل في صدره •

ـ ان صدق ذلك ، فهـو •••

وآخرها كانت اليوم : « انت السبب •• انا بصفتي فلسطينيا لا اتوقـع مـن السلطات ••

* * *

علاقات ابراهيم الحقيقية هي تلك التي تربطه الـى زملائه مـن رفاق المهنـة •

رجال اشداء قساة الملامح من الخارج بحكم العمل الذي يمارسونه

« قيادة الشاحنات » وبسطاء ، طيبو السريرة كما الاطفال من الداخل •

خليط من الفلسطينيين ، والسوريين ، واللبنانيين والاردنيين ، وآخرين ، يجمعهم رباط واحد • الخط الاسفلتي الطويل الممتد ما بين بيروت وبلدان الخليج •

وتجمعهم ايضا نظرة الى الامور اقرب الى ان تكون واحدة ، وان اختلفت اساليبهم في التعبير عنها ، فالاسود لديهم اسود ، والابيض ابيض ، ولا لون وسطا بين الاثنين ، كما هي الحال لدى المتعلمين •

هم يعرفون ــ بحكم معاناتهم ــ ان مصالح مالكي الشاحنات ومصالح التجار تلتقي مع مصالح مشعلي نار هذه الحرب •

وابراهيم ــ على الرغم من الثقة التي اولاها له كل من حنا وبولص عندما أزمعا ترك زمام المبادرة فيما يخص مهمة الليلة اليه ــ لا يستطيع مواجهة اسعد :

ــ لا •

لأن اسعد ــ مثله مثلهم ــ له كل الحق ان يشارك في موته •

* * *

ما جاء ادراك ابراهيم لجسامة ما سيواجهونه من خطر اعتباطا ، بل انه ــ وبسبب من احتجازه مع الشاحنة لمدة يومين في بحمدون ، قبل مجيئه الى هنا ــ رأى رؤية العين مدينة بيروت ، وهي تتحول في الظلام طيلة تينك الليلتين ــ الى كتلة رهيبة من اللهب • ساعتها خيّل اليه ــ وهو على الجبل ــ ان المدينة كائن حيّ هائل الحجم ، له آلاف الاذرع الجهنمية المصطرعة •

وقف اطلاق النار الذي امهله فرصة ان يصل لم يدم سوى ساعات، وهذا الليل المقبل سيضعهم ليس في مخبأ او سرداب ، وانما وجها لوجه وسط تلك الزوبعة النارية الهائلة •

يضاف الى ذلك ان العملية التي ينوون تنفيذها لا تتمثل عبر مغامرة محدودة ، الخروج من اجل غزوة صغيرة ، حانوت بقالة ، كما عرف عن خروج حنا بالامس ،واسعد فجر اليوم ، بل انها عملية انتحارية بنسبة نجاح ضئيلة ، فهم مقبلون على اقتحام خطوط الاعداء ،

ومواجهتهم داخل حصونهم ، باسلحة تكاد تكون بدائية ، اذا ما قورنت بما يتوفر لدى الخصم ، ودون معرفة لعدد من سيواجهونهم .

لكن الحرب ـ وقد رآها من على الجبل ، ونتائجها بعد ما رآها في الشياح ـ تدفعه لان يشارك ـ ما دامت الفرصة سانحة ـ بوضع حد لها .

هو فلسطيني ، لا مجال للشك ،وهو فدائي .. كان بالامكان ،لكن كسب لقمة العيش .. الزوجة ، الاولاد، وطريق بيروت الكويت .

غير ان وضعه المعيشي ذاك لا يمنع ان يكون بشقيق أصغر ، وابن عم فدائيين ، لعلهما يحاربان الآن في مكان ما من بيروت ، او الجنوب ، ان لم يكونا قد استشهدا .

المرارة في فم ابراهيم . التصميم والتردد يتناوبانه .

حنّا ما زال شابا في المقتبل . من هنا يجيء اندفاعه العاتي . هو رائع ، ومن الخسارة فقدانه .

بولص .. الاحرى به ان تتوفر له فرصة الرعاية بعد شيخوخته . طيّب ، وحماسه يجيء امتدادا لايامه العسكرية .

اما اسعد فهو أرعن ، ومن المحتمل ان يواجه الموت دون ان يفهم ما يعنيه الموت .

كل الذي يشغل باله : « الرجال سيذهبون .. اذن هو رجل » ويبقى احتمال ترمل جميلة ، وتيتم الاولاد .

« انا ... »

وما وجد متسعا من الوقت ، ولا رغبة في مناقشة وضعه الخاص ، ومصير .. زينب .. فائزة .. الرضيع ياسر .

* * *

الاحساس بجسامة المسؤولية يبقى كبيرا ومعذّبا .

« لا ادري !! »

ومن اجل ان يخفف ابراهيم من احساسه ذاك توجه الى حنا قائلا :

ـ لدي أمر مهم اود مناقشته معكم !

كان الظلام قد بدأ يخيّم على الشياح ، فتزداد حلكته داخل السرداب .

ــ مهمتنا صعبة للغاية ، واحتمالات نجاحها ..

فقاطعه حنا معاتبا وجادّا في الوقت نفسه :

ــ هل نفهم من ذلك انك بصدد الغاء العملية ؟ !

أحس ابراهيم كما لو ان كفّا فولاذية تطبق على رقبته .

ــ لا .

أجاب باقتضاب ، وانفضّ الاجتماع .

* * *

اخذت اقتراحات بولص جميعها بعين الاعتبار ، عدا اقتراحه القاضي بالتنفيذ بدءا من الساعة التاسعة مساء .

ــ الساعة الثالثة صباحا هو الوقت الافضل .

قال ابراهيم ، ولم يعترض اي من الثلاثة الاخرين ، سوى تعليق عابر من اسعد :

ــ هذا رأيي ايضا ،ولم اصرّح به .

القسم الثالث

١

ما كان ليخطر في بال أي من النساء المنتظرات ان يعود اسعد وحده ، بعد حوالي ساعة ، ليصرّح بصوت راعش :

ــ بولص مــات !

قبل ان يلتقط أنفاسه •

ــ •• أعني استشهــد !

كان أشبه بالشبح الذي اقتحم عليهم السرداب فجأة •

ــ •• قتلوه قرب سور الكنيسة !

يدور بعينين مضيّعتين على وجوههم التي جمّدها الفزع ، وشلّها الترقّــب •

ــ حنا •• اصيب باطلاق ناري في صدره !

شهقة مكتومة تصدر عن مارسيل •

ــ ••• اصابته ــ كما يقول ابراهيم ــ ليست قاتلة •

يتهالك جالسا •

ــ كنّا في طريق مغادرتنا للبنايــة ••

سؤال متردد اقرب الى صرخة حبيسة يصدر عن زينب :

ــ وابراهيــم ؟!

يلتفت اليهــا •

ــ أخذ حنا الى المقاومة من اجل اسعافه •

ثم سؤال مخنوق يصدر عن جميلة :

ــ والقنّاص ؟!

يلتفت ناحيــة فائزة .

ــ كانــا اثنيــن ...

يسحب لصدره نفسا قصيرا .

ــ ... « خلّصنا عليهمــا » .

* * *

* فــي الليــل :

الكثير من مناطق العاصمة تعاني من شحّــة شديدة فــي ميــاه الشرب ، وكذا عن حاجتها الى الخبز ، عدا معاناتها من خطــــر انتشار الاوبئـــة .

حصيلة اشتباكات يوم امس ــ حسب التقديرات الاولية ــ تربو على الثلثمايــة ما بيــن قتيل وجريح ، واليكم قائمة باسماء القتلى الذيــن عُرفت هوياتهــم :

صالح سلمان (طفل فلسطيني) ... عنان احمد (طالب ثانــوي فلسطيني) ... عماد عمران (طالب جامعة .. بحريني) .. حاتم صادق (فلسطيني) ... سناء عادل (طفلة في الخامسة ... لبنانيــة) نبيــل احمــد (فلسطيني) ... سعيد احمد (فلسطيني) ... (فلسطيني) فلسطيني .. فلسـ ...

* * *

* وفي النهــار :

صرّح مصدر كبير مسؤول : على كافّة الاطراف المتنازعة ان يتحلوا بضبط للنفس اكبر ، وان يضعوا مصلحة لبنان ، وأمن لبنان ، واستقراره، فوق الاعتبارات الشخصية ، والمصالح الفردية ، وان يبذل القــادة منهم جهدا مخلصا أكبر للسيطرة على فئاتهــم غير المنضبطــة ، فأمن لبنــان واستقراره ليسا مرهونين باللبنانيين وحدهم .. وانما هما امانة مقدّسة في اعنــاق اشقائنا الفلسطينيين أيضا .

* * *

لكن الذي يحزّ في نفس مارسيل ، ويحولها الى مرجل من الحقد والغضب والدهشة ان دمار منطقة الشياح ، وسقوط المئات من القتلى والجرحى ، ومن ضمنهم بولص وابنها حنا لم يكن بسبب من نيران مدافع الفدائيين .

« ـ اصيب باطلاق ناري في صدره ! »

صفعة ساحقة سقطت على وجهها ، واطارت صوابها . الدوار . الاحساس بالضياع .

« هذا ما توقعته ! »

وجورج ـ هناك ـ في مسشفاه لا يدري ! .. لو كان هنا !! العويل ؟! .. كيف ؟!

« اصابته ـ كما يقول ابراهيم ـ ليست قاتلة »

هل تكتفي بسماع تتف الاخبار هذه ؟!

لو ان الحرب ما كانت !.. أو لو انها توقفت !.. لركضت :

« اين ذهب به ابراهيم ؟! »

* * *

وعندما انتحت باسعد جانبا ...

ـ اصابة حنا ... كانت خطيرة !!

تردد اسعد لثوان .

ـ انت تدرين .. الظرف .. المطاردة .. الهرب .. الظلام .. ولا استطيع الجزم !

قلبها يخفق بشدة عبر محاولتها لتمثّل مشهد اصابة ابنها .

قالت بصوت يتوقع :

ـ اظنه سقط على الارض حال اصابته ؟!

ـ ....

فنكّس أسعد رأسه صامتا ، وتدفّق القهر ـ موجة خانقة ـ في حنجرة مارسيل :

ـ كيف سقط ؟!

يرفع عينيه اليها .

ـ اظنـه لم يسقط •
طيف فرح يركض على وجههـا •
ـ ••• لم اره يسقط •
لا تستطيع منع كفّها عن الاطباق على ساعد اسعد •
ـ •• رأيت ابراهيم وهو يحتضنـه •
ـ كيف ؟!
هتفت بلهفة ، واصابعها تعتصر لحم ساعده •
ـ كان ابراهيم يسنده •• يساعده على الركض •
ضحكـة هستيرية تنفلت من فمها •
ـ حنا •• كان يركض !
عيناها تدمعان • الضحكة بكاء مرّ •

* * *

تجفّف عينيهـا بطرف ثوبها • الرغبة الامومية الحارقة تدفعهـا لأسعـد اكثـر •
ـ هل كان ينزف بشدّة ؟!
التفكير العميق يبدو على محيّا أسعد •
ـ لا اظن •• انت تدرين •• الظلام •• الظرف ••
التوسل في سؤالهـا :
ـ حاول ان تتذكّر ! •• كنت معهما ؟!
شيء من التسلّط في لهجتـه :
ـ الاحرى بك ان تكونـي واقعيـة !
قال واضاف باقتنـاع كامـل :
ـ •• اهناك جرح بلا دم ؟! •• فما بالك برصاصة في الصدر ؟!
عزيمتها تخور • تراودهـا فكرة الاكتفاء من اسعد بما قاله ، لكـن سؤالا آخـر لا يـزال يرعشهـا •
ـ عن الرصاصة •••
وتشبّثت بعينيه متوسّلـة •
ـ •• هل كانت من جهـة القلب ؟!

ابتسامة مشاركـة ـ للمرة الاولى ـ تبدو على وجه اسعد •

صوته يصلها واثقا ، صادقـا :

ـ بخصوص هذا الموضوع بالذات استطيع الجزم ••

انفاسها مرهونة بحركة شفتيه •

ـ ••• الرصاصة كانت في الجانب الايسر •

دموع العرفان والفرح تطفح في محجري عينيها • وجـه اسعد ـ كجسم مرئي ـ يتداخل ، وسؤال جديد يقفز الى ذهنهـا :

ـ اهي اطلاقـة بندقية ؟!•• أم •• أم •• قذيفة ؟!!

صوتها الذي كان يشي ببارقة أمل ينهار فجأة ، ولا تمنع نفسها عن الانخراط في بكـاء مفجـوع •

٢

وأشعة الشمس ترسل انعكاسها باهتا عبر النافذة الضيقة للسرداب .

اقتربت زينب من أسعد . كان دورهــا في معرفة شيء من اخبار زوجها .

ـ متى يرجــع ابراهيــم ؟

تساءلت بلهجة جهدت ان تجعلها طبيعية ، فنظر اليهــا اسعــد مــن زاويــة عينــه .

ـ ابراهيم لن يرجــع .

اجاب بتصميم غريب دفع حاجبيها الى الارتفاع دهشة .

ـ لن يرجــع !!

وانشدّت عيون كل من فائزة وجميلة ومارسيل .

ـ ... لمــاذا ؟!

سادت لحظات صمت مستوفز ، اجاب اسعد بعدها :

ـ ابراهيم قال لي قبل افتراقنا : سأظل مــع المقاومــة مــا دامت هــذه الحــرب ..

ولم يتمّ . احساس دخيل بالذنب بدأ يتنامى في داخله .

« وانا !! .. اليس الاحرى بي ايضــا ؟! »

ـ ألم يقل شيئا آخر ؟!

السؤال صدر عن فائزة . صوتها برقّة مُحبّبة ، ودّ لــو يستطيع

الانسجـــام ٠

ـ لا ٠

رد باقتضاب أزعجه ، وسارع للهرب بعينيه مـن مواجهـة عينيها الواسعتيـن ٠

« لا اجزم بأن فرصتنا ستحيـن ! »

* * *

بعد حديثه المقتضب مع زينب وابنتها خيّم على الجميع صمت ثقيل ، يكـاد يكـون شاملا ، امتدّ طيلة ذلك النهار والليلة التي تلته ، علـى الرغم من تتابع دوي الانفجارات واطلاقات الرصاص في الخارج ٠

فالحزن الذي ترتّب على مقتل بولص ، واصابة حنا ، الـى جانب القلق الناتج عن غياب ابراهيم ، تسببا في خلق جو مأساوي متوتر ، دفع كلاّ منهم لان يلوذ بافكاره صامتا ، عدا الاصوات التي كانت تنبعث عن الراديـو الترانزستور ، بين ساعـة واخرى ، نظرا لاصرار مارسيل علـى متابعـة تطورات الوضع من خلال الاذاعة ، وجملـة اخباريـة قصيرة صدرت عن فائزة صباح اليوم التالي ٠

ـ المـاء نفد ٠

قالت ، وهي تأتي على جرعة الماء المتبقية في قعر القنينة البلاستيكية ٠

* * *

ـ المـاء نفـد !

ترددت في ذهن اسعد اشبه بنذير الخطر ٠

« مـاؤهم نفـد ! »

لا بد له من الخروج اذن ٠ سواء الآن ٠ أم بعد ساعة ، ساعتين ٠

الحر ٠ العطش ٠ وعلى الاخص ذلك الطفل الصغير ابن ابراهيم ٠

« ـ بالنسبة لـي ٠٠ لن اعود الى البيت »

قال له ابراهيم ـ لحظة افتراقهما ـ بلهجة تنمّ عن يقين مصّرّ ٠

كانوا ـ ساعتها ـ قد وصلوا منطقة الشياح ، وزال الى حد ما خطر تلـك المطاردة الرهيبة التي انتهت بمقتل بولص واصابـة حنا ، فنقـّل اسعـد نظراته الحائرة بين وجه حنا المتشنـّج بالالم ، والوجـه الصارم

لابراهيم ، واستطرد الاخير :

ــ حنا بحاجة ماسّة لاسعاف سريع .. النزيف !

ثم التقط انفاسه ، كان حنا ــ بثقل جسده ــ يستند على كتفه .

ــ ... وانا بحاجة لأن أظلّ الى جانب أفراد المقاومة لحين انتهاء هذه الحرب !

ــ وانا ؟!

تساءل اسعد بضياع يطمح لاتخاذ موقف ايجابي ، فاجابه ابراهيم بالصوت الصارم ذاته :

ــ عُد الى السرداب !

وهو يبتعد بحنّا صاح من غير ان يلتفت :

ــ .. هم بحاجة اليك هناك !

وما شعر اسعد في حينها ...

« هو يأمرني ! »

بل ان ضرورة اقتسام المسؤوليات بين ندين متكافئين هي الدافع والحافز الذي تلقاه اسعد ــ راضيا ــ في القبول والتنفيذ .

***

« الماء نفد ! »

وطفق اسعد يذرع ارض الممر الضيّق ــ الممتد ما بين النافذة وباب السرداب ــ جيئة وذهابا ، بخطوات بطيئة ، ووجه صارم .

ــ تبدو قلقا !

لكنه اهمل الرد على جميلة .

ــ ما بك ؟!

سألته بعد دقائق . طبيعة صوتها تتوق الى مشاركته بالذي يعذّبه .

ــ لا شيء !

اجابها باندهاش منزعج ، دون ان يحوّل بصره اليها .

نظراته ضمن مساحة الارض ما بين قدميه . كتفاه يتهدلان اكثر فاكثر . حاجباه ينعقدان بعصبية ظاهرة على افكار متعددة ، تصطرع في ذهنه .

والشمس ترتفع توقف امامها فجأة صامتا •

ــ ما بك ؟!

ــ ••••

العرق يتفصد من جبهته • حاجباه يرتخيان قليلا •

ــ اظنك تتألمين بشدّة ؟!

سألها برفق ادهشها • كانت لا تزال مضطجعة على بطنها بسبب اصابتها •

ــ لا •

اجابت برقّة ، واضافت متسائلة :

ــ وانت ؟!

ــ ••••

كان قد عاد يذرع ارض الممر • عيناه ضمن مساحة الارض بين قدميه ، وكتفاه يتهدلان اكثر فأكثر ، في الوقت الذي امتدت فيه يد مارسيل الى مفتاح المذياع

* * *

❋ ايها السادة المواطنون :

تشير جملة من الدلائل الى ان الازمة التي عانينا منها طويلا ، آخذة طريقها الى انفراج نهائي ، عبر اتفاق يرضي الاخوة المتنازعين كافّة •

هذا •• وقد صرّح مصدر موثوق به : هناك احتمال كبير ان يعلن السيد الرئيس المكلف عن تشكيل حكومة للانقاذ الوطني ، خلال هذا النهار ، او ــ على اكثر تقدير ــ في ساعة متقدمة من هذه الليلة •

كذلك نعود لنذكر الاخوة المواطنين •• الى ان جميع طرقات العاصمة والمنافذ المؤدية اليها ما زالت غير آمنة ، وغير سالكة •

٣

« الطلعة » التي شارك فيها (قنص القنّاص) ـ بما تمخضت عنه ـ وضعته وجها لوجه ـ للمرة الاولى ـ امام ذاته من جهة ، وامـام ذوات الآخريـن من جهـة اخرى .

في البدء : اثناء مناقشة الخطة بين كل من ابراهيـم وحنا وبولص ردّد اسعد مع نفسه بقهـر :

« هم يتعمدون اغفالي !! .. كأني لست رجلا مثلهم !! »

ووجـد عزاء فـي :

« انا ـ لو أرادوا الحق ـ اكثرهم شجاعة ، واكبرهم مقدرة علـى رسم خطـة مُحكمة تنتهي بعودة الجميع سالمين » .

ليس هذا فقط :

« .. فالاهم : ان نأسر قنّاصا ، نستطيع باستجوابنا لـه ان نعرف الكثير من أسرار العـدو »

وعندمـا حاكمته جميلة بسؤالها المستفزّ :

ـ هل انت ذاهب معهم ؟!

وجد تبرير ترفعه عن الاشتراك بقوله :

ـ هم مجانين ! .. يظنون بأن القضاء على قنّاص واحـد سيضع حدّا حاسما للحرب القائمـة !!

لو كانت جميلة أوسع افقا ، ولهـا في السياسة بعض ما لديه مـن اطـلاع ، لاضاف :

ــ هم يمارسون سلوكا برجوازيا ، يدل على نظرة قاصرة ، متطرفة ، احاديـة الجانب !

لكن قناعة جميلـة ...

ــ انت غبـي كبيـر !

زعزعت ــ وبشكل جذري ــ ما كان قد اقتنع به ، من خلال محاولته تبرير موقفه امامها . وتبنى ــ بعد تردد قصير ــ موقفا جديدا مناقضـا للاول :

ــ هو يغتنم فرصة حديثهم عن السلاح ، ويتقدم باعتذار صادق . الظرف . الاصابة . الزوجـة . العاطفة العائلية تتغلب على الحسّ الثوري ... لهذا وذاك هو يعرض عليهم مشاركته معهم .

* * *

عـن القيـادة :

ــ لا بد لقائد مجموعتنا ان يكون مثقفـا .. له المام واسـع برسـم الخطط ...

فلا يستطيع اسعد ان ينكر نزوعه المعذّب اليها . هو ــ بطبعه ــ يكره الانقياد لسواه . ايّا كان الشخص ، وضمـن ايـة ظروف كانت . اضافة الى قناعتـه المطلقـة :

« انا افضل الجميع خبرة وثقافـة !»

كذلك لا يستطيع اسعـد انكاراً :

« آلمني حنا كثيرا .. جرح احساسي ،عندمـا قال : لـن نكلفك مسؤوليـة قيادتنـا !»

لكنه وان كان قد حمل ضغينة في دخيلة نفسه على حنا في البدء ، نراه سرعان ما يزيلها ــ بكل ما ترتّب عليها من آثار ــ بعدما كشفت لـه الاحداث اللاحقة طيب نوايـا حنا وصدقه واخلاصه ، والأهم : عـدم تقصده الاساءة اليـه .

* * *

عند مغادرتهم للسرداب ــ سالكين طريقا فرعية باتجاه هدفهم ــ لم يتول ابراهيم ــ كما سبق وخيّل لأسعد ــ زمام قيادتهم ، بل ان الامر ــ وهذا ما اراح اسعد ــ ترك بين يدي بولص •

ــ انحنوا قدر الامكان ! •• واركضوا ــ من ورائي ــ بخط متعرج لكيلا تتعرضوا لـ •••

الظلام • الخراب • الرصاص • التعب ، وبعد قليل بدأ الحي الآخر يقترب •

ــ كونوا حذرين اكثر !

همس بولص ، وهو يلصق ظهره بسور حديقة الكنيسة •

ــ انتم جاهزون ؟!

ــ •••••

ــ الآن !

ودهش اسعد ــ لحظتها ــ من الخفة والمرونة اللتين ابداهما بولص ، اثناء تسلقه للسور •

« يكاد يكون بخفتي أنا !! »

* * *

وهم يواجهون البوّابة الرئيسية للمبنى الكبير صادفهم حادث مفاجيء ، لم يكن ضمن خطتهم •• في التو ــ ومن دون مشاورة ــ انتقل زمام المبادرة لحنا ••

ــ ارفعوا ايديكم !!

صوت هادر برز لهم من الظلام •

ــ من انتم ؟!

وواجههم ــ مباشرة ــ رجل مسلح برشاش •

« ضعنا !! »

ولم يجد اسعد كلمة اخرى يقولها لنفسه • الموت ممثلا برشاش مصوّب لصدورهم •

ــ انت انقذتني !!

صرخة ضارعة وصادقة في الوقت نفسه صدرت عن حنا ، وسارع

للانفصال عن الثلاثـة الآخريـن .

ـ انا مـارونـي !

قال حنا مشيرا لصدره ، واضاف مشيرا نحو الثلاثة :

ـ وهؤلاء من الشيـاح !

الرجل الرشاش ينقّل نظراته عليهم . حنا يواجهه بضراعة منفعلـة كمـا البكـاء :

ـ هم في طريقهم لاختطافي ، ولولاك انت ..

ـ مجرمون !!

قال الرجل الرشاش بحقد ،ولم يتردد اكثر .

ـ جرّدهم من اسلحتهـم !

ـ حاضر .

اجاب حنا ، بلهجـة تنم عن فرحـة بالانتصار .

* * *

جسامة المفاجأة ،هولها،عدم توقعها، كل ذلك لم يسنح اسعدالفرصة كـي يصرّح عن رأيه بحنا ..

ـ خائن !! .. قـذر !!

واقترب حنـا .

ـ وجوهكم الى الحائط !!

صوته ينزّ كراهيـة .

ـ .. ارفعوا ايديكـم !!

ثم جرّد الثلاثة من اسلحتهـم .

ـ والآن ؟!

تساءل ، وهو يقترب من الرجل الرشاش لينضم اليه ، فاجابه الاخر:

ـ نذهب بهم الى المقرّ ، ونرى ما يقررونه بشأنهم .

ـ حسنـا .

قال حنا ، والتفت الى الثلاثة آمرا بصلافة لـم يعتدها أسعد :

ـ امامي !! .. يا أبناء الـ..

* * *

لكن الرجال الخمسة لم يقطعوا من الطريق الى المقر سوى خطوات معدودة .

حنا وهو يسوق الثلاثة امامه التفت الى الرجل الذي يسير بحاذاته.

ـ انا لم ارك من قبل !

قبل ان يعاجله بضربة ساحقة ، خاطفة ، من كعب المسدس في جبهته .

ـ أ أ !!

صرخة خافتة ، تهاوى بعدها الرجل على الارض . الظلام ، الصمت، عدا ضجيج محرّك سيارة في الشارع الآخر ، الخطر يحدق بهم ، ممثلا باحتمال مواجهتهم لمسلحين آخرين .

اسعد لم يستطع منع نفسه عن ان يهمس بفرح لاهث :

ـ رائع ! !

مبنى المقر ـ بمن فيه ـ يبتعد عن ذهنه الذي بات عاجزا عن متابعة سير الاحداث بسرعتها الجنونية تلك .

ابراهيم لم ينبس بحرف . عاد وانحنى على الرجل . مدّ يده ، واطبق بها على الرشاش .

ـ بسرعة !!

غمغم بولص ، واتمّ بلهجة محذّرة :

ـ الوقت يسبقنا !!

ـ نسحب جسد الرجل عن منتصف الطريق ، حتى لا ينكشف امرنا قبل انتهائنا من مهمتنا !

قال اسعد ، بيد ان الاخرين سبقوه الى المبنى ، لولا التفاتة من ابراهيم .

ـ انت على حق هذه المرة !

وعاد ، متعجلا باتجاه اسعد .

٤

مدخل المبنى باضاءة خافتة ، ورجل مستغرق في النوم على اريكـة خشبيـــة الى جانب الجدار المرمري •

بولص يتسلق السلّم بخفّــة بدأت تتباطأ ، حتى تحوّلت الـى لهاث عند نهايــة الطابق الثالث •

ــ تتوقف قليــلا !

همس ابراهيم • فاجابه حنا بالخفوت ذاته •

ــ قليــلا •

الصمت والظلام يخيّمان على المبنى ، سوى ضوء ضعيف يتسلل عبر السلّم ، قادمــا من طابق أعلى •

ــ لو كنّا في ظرف آخر لاستعملنا مصاعدهم الفاخرة !

همس اسعد بتعليق ساخر لم يلق تجاوبا ما •

ــ هيــا !

غمغم بولص ، وهو يعاود التسلق •

* * *

ازدادت قدرة الضوء القادم من فوهة السلّم علـى الانارة لـدى وصولهم الطابــق الرابــع •

ــ بقي طابق واحــد !

وارهفوا آذانهم • اصوات غير واضحة تتسلل مـع الضـوء عبر

فوهـة السلّـم .
انفلت ابراهيم مسرعا باتجاه الدهليز ، حيث الظلام أشدّ كثافة ، فلحقه الآخـرون .
ــ هم اكثر من واحـد !
ردد ابراهيم بخفوت ، فأجابه بولص :
ــ سأحاول ان اعرف عددهم !
ولم يمهل الآخرين وقتا للمعارضة .

***

بولص يرتقي الدرجات الموصلة الى الطابق الخـامس ببطء حذر ، وابراهيم يقف متحفزا عند ناحية السلم ، واصبعه علـى زنـاد الرشاش الامريكـي .
« لو انه خلع حذاءه ! »
لكن بولص ــ ومن غير ان يصدر اي صوت عن قدميه ــ يتوقف عند الثلث الاخير للسلم . مساحة الضوء تشمله اكثر . يمط رقبته . تمر ثوان ، قبل ان ينحدر بالحذر والبطء الشديدين اللذين صعد بهما .
ــ اثنـــان !
همس بولص وهو ينضم مع ابراهيم الى حيث يحتمي حنا واسعد .
ــ .. يجلسان في الممر ، امام الباب المغلق لغرفة الخدمة . عاد الى الهمس ، واضاف متمما :
ــ احدهما يتسلح ببندقية ذات ماسورة طويلة ، اما الرجل الآخر .. وصمت لدى سماعه ضحكـة مبتورة صدرت عـن احـد رجلي الطابـق الخامس .
حبس الاربعة انفاسهم برهة ، همهم بعدها حنا بحقد :
ــ ماسورة طويلة !.. صيّاد محترف !!
ــ الثاني غير مسلح .
قال بولص ، فأتم حنـا :
ــ لعل مدفعه الرشاش ما يزال مثبتا على قاعدة نافذة غرفة الخدمة !
ــ اسمـع !!

فأصاخ الاخرون اسماعهم ، واستطرد ابراهيم موجها سؤاله لبولص :

ـ ما الذي يفعلانـه بالضبط ؟!

ـ لا شـيء ..

وحبس زفرة كادت تنفلت من فمه ، وأتمّ على الاثر بصوت اسيف :

ـ اظنهما أنهيا شربهما قبل قليل . رأيت مجموعة لا بأس بها مـن زجاجات البيرة فارغة ، مرصوفة الى جانب الجدار .

ـ يقضيـان وقتـا ممتعـا !

ردد اسعد بغضب مكتشف ، وتحدث بولص بلهجـة مشوبـة بالاندهـاش :

ـ خيّل اليّ ان وجه الرجل الاقرب منهمـا الـى السلّم ليس غريبـا علـيّ !

فتدخل اسعد بنبرة شاكّـة هذه المرة :

ـ كل هذه الملاحظات من نظـرة خاطفـة !!

لكن بولص ـ تتيجة انشغال ذهنه ـ لم يلتفت لتدخـل اسعد ، واكمل بالاندهاش نفسـه :

ـ هو .. يشبه الى حد كبير احد الشبان الذيـن لا عمـل لهـم غير التسكع في شارع الحمراء !

ـ بهذا أصبت .

قال أسعد ، واستطـرد :

ـ لان فرص الارتزاق ...

فاعترضه ابراهيم مؤنبـا :

ـ الاحرى بنا ان نفكّر بالتنفيذ اولا !!

* * *

وكان التنفيذ يعتمد ـ بالدرجة الاولى ـ علـى عنصر المفاجأة . ابراهيم يصعد قبل الاخرين . يقتحم المكان .

ـ ارفعوا ايديكم !!

بعد ذلك يجيء دور اسعد وحنا ، حيث يقومان بتجريد الرجليـن من سلاحهمـا .

ـ بهذه الطريقـة ...

قال ابراهيـم .

ـ ننجز مهمتنا دونما حاجة لاطلاق النار ، ومن غير ان نلفت اهتمام مجموعاتهم الاخرى المنتشرة في المنطقـة .

فانبرى اسعـد :

ـ فكرتي ايضا . نأخذهما اسيرين

* * *

لكن الرجلين ـ وقد اخضعا لمفاجأة غير متوقعة لديهمـا نتيجـة اطمئنانهما المطلق لمكمنهما ـ تحفزا بحركة لا ارادية للدفاع عن نفسيهما، مما اضطـر ابراهيم للضغط على زنـاد الرشاش .

* * *

بعد ذلك توالت الاحداث بسرعة غريبة .

ـ هيّا !

صرخ ابراهيم ، وانطلق يسبق الثلاثة الى السلّم .

ـ اين بـولص ؟!

ـ ها أنـا !

اجاب الاخر من ورائهم لاهثا .

ـ أسرع أكثـر !

ـ ....

الى جانب جدار المدخل كان البواب جالسا على اريكته .

ـ آه !!

وبقي فاغرا فمه دهشة ، وفزعا ، فوهة الرشاش تواجهه .

ـ ايـن بولص ؟!

تساءل ابراهيم بقلق ، فوصله صوت بولص من عند السلّم

ـ وصلـت !

وقبالة الباب مجموعة من الرجال المسلحين . طلقات ابراهيم فعلت فعلهـا فـي الحـي .

ـ اسرعـوا !!

صرخ ابراهيم ، وركض امامهم . لا بد له من الاعتماد علـى عنصر

المفاجأة ثانية ، وفتح النار في المتجمهريـــن •

***

النار ، الاقتحام • الاصابات • كل هذا تسبب في ايقاع الاضطراب بين المتجمهرين ، قبل ان تتوارد الى المكان مجموعات اخرى ـ محمولة ـ مسلّحـــة •

في تلك الاثناء وصل ابراهيم سور حديقة الكنيسة ، ثم لحق بـه على الفور حنا ، فأسعـد •

ـ وبولص ؟!

ـ هذا انــا !

اجاب بولص لاهثا وهو يتلقى جدار السور بكفّيه ، واضاف مـن بين انفاسـه المتقطعـة :

ـ يجب ... نسرع ... هم ..

المطاردون يقتربون • يتنادون

ـ السرعـة !!

وبالسرعة التي هتف بها ابراهيم تسوّر الاربعة سور الحديقـة • بولص كـان آخرهم •

ـ لو استطاعوا تطويقنـا لانتهينـا !!

اغصان الاشجار تلطم وجوههم • الجانب الآخر للسور امامهم •

ـ لو تخطينــاه !!

غمغم ابراهيم ، وتذكّــر :

ـ بولص !

ـ انا هنـا !

كان الاخير يشق طريقه اللاهث بين الاغصان من ورائهم •

ـ اسرع !

المطاردون يصلون الجانب الابعد للسور • الرصاص • ابراهيـــم يتسوّر • اسعد يلحق به • حنا ـ وهو يتسوّر ـ يلتفت •

بولص ـ وهو يتهاوى من تحته ـ يصرخ بلوعـة تتضمـن طلب الاستغاثـــة :

ـ تعبت !! .. لا استطيع !!

وفي اللحظة التي مدّ فيها حنا يده باتجاه بولص صدرت عنـــه صيحــة ألم مكتومــة :

ــ آي !!

وكاد ان يتداعى الى جانب بولص لولا اطباقة قوية من يد ابراهيم جاءت علــى رقبتــه .

ــ اين اصبت ؟!

وباليد الثانية سحبه من ابطــه .

***

في انسحابهم لم يسلكوا الطريق الفرعية ..

ــ من هنــا !!

ثم اجتاز ابراهيم المنحدر وهو يتلقى ثقــل جسد حنا علــى كتفه . الرصاص ، وارهف اسعد اذنيه ناحية سور حديقة الكنيسة ، علّ صرخــة ما تصدر عــن بولص .

وهم يحتمون بواحد من جدران بيوت الشياح ــ بعد زوال خطر المطاردين ــ تساءل ابراهيم ، وهــو يسند جسد حنا الى الجدار بمحاولة منــه لالتقاط انفاســه :

ــ تتألم بشــدّة ؟!

لكن حنا لا يجيب مبــاشرة .

ــ اتــدري ؟!

قال بعد صمت قصير ، واكمل بصوت متهدّج :

ــ بولص كــان عظيمــا !!

فغصّت الكلمات في فم اسعــد :

ــ هو .. لم .. يصرخ !!

***

لحظة الافتراق واجهه ابراهيم

ــ النزيف : حنا بحاجة . المقاومة : انــا بحاجـــة . السرداب : هم بحاجــة ...

والماء نفد . اسعد ــ منذ الآن ــ المسؤول الوحيد . القائد الوحيد. وما عليه الا ان يتخذ القــرار .

٥

نسوة ثلاث • مراهقة • طفل • ذلك هـو الشعب الذي يتوجب علـى اسعد ان يسهر على رعايتـه •

ترددت في داخله صرخة بولص المستغيثة :

ــ لا استطيـع !!

فاجتاحته رعدة • اما كان الاحرى بأسعد ان يعود اليه • يمدّ يد المساعدة ، لكن الرصاص ••• الموت !

والمرارة في فمه تذكـّر بادرة ابراهيم : كان الاخير قد اطبق بيديه على حنا المصاب • سحبه من فوق سور حديقة الكنيسة • تلقفـه بيـن ذراعيه ، ليركض به ، واسعد شغله خوف الموت عن التفكير ببولص •

« لمـاذا تجيء الافكار الجيـّدة متأخرة ؟! »

هو منذ اليوم لن يرى بولص •

« المجرمـون !! »

صرخة حاقدة ترددت في صدره ، تذكر على اثرها اصابة زوجته • وقف ــ ثانية ــ امامهـا •

ــ انت بحاجة للذهـاب الى مستشفى !

صوته الحزيـن لا يبعث لديهـا دهشة غاضبة •

ــ ليس قبل انتهاء الحـرب •

أجابت بعجز ، فالتفت ناحيـة زينب •

ـ من منكم بحاجة الى المــاء ؟!
فاجابت الاخيرة بقناعة رقيقة :
ـ حتى لو كنا نحسّ العطش لما رضينا بخروجك في مثل هــذا الوقــت !
واشارت بيدها ناحية النافذة ، مؤكدة خطر مغادرتــه السرداب ، والقصف علــى اشــدّه •

***

عند الضحى كفّ اسعد عن ذرع ارض المسر الضيّق ، واتخذ مــن سلّم السرداب مكانــا لجلوسه •
هي المرة الاولى التي يشعر فيها بنوع من التعاطف والودّ العميقين لاولئــك الجالسين فــي الداخــل •
جميلة بجرحها اللعين • مارسيل : « اظنه سقط على الارض حــال اصابتــه ! » زينب وزوجها •• المقاومة •
اما عــن فائزة : فرغبته الجنسية ـ ان اراد الحق ـ ما عـــادت محتدمــة كمــا فــي السابــق •
واخيرا الطفل الذي بدأ يعول • المعلبات لــم تنفــد بعــد • اذن هــو العطش •

***

كانت الساعة تشارف الثانية عشرة ظهرا عندما اقترب اسعد منهم •
الخوف • التردد • القصف • القلق • وبصوت يشي بما في داخلــه مــن صراع قــال :
ـ آن اوان خروجي لجلب الماء على ما أظن !
احساسه بمسؤوليته عنهــم ازداد تراكمــا من خــلال العويل المتواصــل للطفــل •
ـ لو خرجت الآن لما حصلنا على ماء !
رددت مارسيل بتقريرية واثقة ، ولمّا تطلع اليها أسعد مندهشا أتمت:
ـ •• لأنك ان وفقت بتفادي خطر الاصابة في الذهاب ••
هزّت جميلة رأسها مؤيدة ، وتدخلت زينب :

ـ لن نموت لو صبرنـا عن الماء ساعات اخرى •
ـ والطفـل ؟!
تساءل اسعد بلهجة يشوبها القلق ، فأجابت :
ـ والطفل ايضا لن يمـوت •
ـ لكـن •••
وصمت • هذه الحيرة التي تلقيه في التناقض مع نفسـه ، فانبرت فائزة تقتـرح :
ـ لم يبق عن المساء كثير وقت • مغادرة السرداب فـي الظـلام اكثـر امانـا •
صوتها يطفح بمشاركة لـم يعهدها • الفرح يتوالد فـي داخله • هم يحرصـون عليه • هو رجلهـم •
وعندما سرق نظرة خاطفـة من فائزة ، كـانت الاخيـرة تبتسـم لـه بـودّ •

***

مع مغيب الشمس اقترب اسعد للمرة الثالثة •
ـ سأذهـب !
صوته الحازم لا يقبل مجالا للمناقشة • العتمـة داخـل السرداب اشدّ مما هي عليه في الخارج ، وما جرؤت احداهن على التفوه بحرف ، عدا غمغمة مخنوقـة صدرت ـ متأخرة ـ عن جميلة :
ـ كـن حذرا !!
قالت على أثر تخطي اسعد لسلـّم السرداب ، واستندت على كفـّها رافعـة جسدها بتثاقـل •
هي ـ على الرغم من جرحها ـ بحاجة لمتابعة خروج زوجهـا ، في الحين الذي امتدت فيه يد مارسيل الـى المذياع •
كانت بصدد اغلاقه • صدمتـه ، فانقلب • الموسيقـى الحماسيـة تواصـل خشخشتهـا •
ـ أ أ !!
صيحة حبيسة انبعثت من فمها • منذ ثلاثة ايام انقلب المذيـاع فـي

مكانه هذا عندمـــا امتدت اليه يد بولص •

ـ مـــا بـــك ؟!

ـ •••••

ولم تلتفت ناحية زينب • بطاريات المذياع ـ يومها ـ كانت اكثـــر قـــوة • وبـــولص •••

لكن الانقطاع المفاجيء للموسيقى يقطع عليها تسلسل انفعالاتها ، وصوت المذيـــع :

❋ ايها المواطنـــون •••

ـ •••••

يشدّ سمعها • لهجته الحاسمة تشحذ ترقبها • زينب ـ بدورها ـ تشاركهـــا الترقب ، وكذا جميلة • صوت المذيع يجيء ـ بعد ثوان مـــن الصمت المتوتر ـ مشحونا بانفعالات يصعب تفسيرها :

❋ بعد قليل نذيع عليكم خبرا هامّا !!

٦

وهو يرتقي درجات سلّم السرداب تذكّر المبنى البعيد • ليلة امس الاول ، والقناصّين اللذيـن تمّ الاجهاز عليهمـا •

الغسق لا يزال يبقايا من ضوء رمادي ، وعندمـا اطلّ برأسه خيّل اليه ان نافذة غرفة الخدمة في الطابق الخامس من المبنى البعيد مفتوحـة ايضـا •

من يدري ••• لعلهم وضعوا بـدل القناصين الميتيـن ، قنّاصة آخريـن •

حدّة الانفجارات لم تخفّ بعد ، لكن مساحة الشارع التي امامه لا تتعرض ــ هذه اللحظة ــ لاطلاق نار •

وقبل ان يغادر مكانه التقط انفه رائحة خشب محروق ، فحانت منه التفاتـة الى الجانب الآخـر •

ألسنة النيران تنبعث ــ حمزاء، في نور الغسق ــ من النوافـذ العليـا لمبنيين مجاوريـن •

« متى اشتعلت هـذه النيران »

« ــ الرجاء : افساح المجال امام رجال الاطفاء •• وعدم التعـرض لهـم باطلاق النار عليهـم ••»

كأن كل هذا الخراب مـا عاد كافيا • ستظلّ النار مشتعلة حتـى تأتي على كل ما امامها • لعل القصف الذي اشتدّ ظهر اليوم هو السبب •

ولم ينتظر اكثر • مساحة الشارع ـ الغالية ـ تنفرش امامه •
دفع قدمه بالارض قويًا ، وانطلق • شيء ما يصدم الاسفلت مـا بين قدميه • ازيز حاد • وصوت اطلاقات مدفع رشاش يتردد في البعيد •
« أنـذال !! »
واستقبل الجدار المواجه بذراعيه • حدسه لم يخبِ اذن •
« خونـة !! »
هو لن يمنحهم فرصة قتله • واحسّ بالانتشاء يتكاثف في صدره •
سيخرج ••• وسيحصل على الماء •• وسيعود سالما •• رغم انوفهم ، ومن نافذة السرداب انبعث صوت زينب مأخوذا ، والها :
ـ أسعـد !!
فرفع يده اشارة على سلامته ، وانطلـق ماشيا بمحاذاة الجدران ، بخطـوات خفيفـة ، مرنـة •

* * *

بقالة اولى • ثانية • ثالثة • رابعة • ولا جدوى • نصف ساعة منذ ان غادر السرداب • هل يعود اليهم من غير مـاء ؟!
الطفل ، وهذا العطش الذي بدأ يعاني منه أسعد نفسه ، لعلّهـم اشـد ، والحرب ، لا احد يستطيع تحديد ساعة توقفها •
من المحتمل ان تظلّ يوما •• اسبوعا •• شهرا •

* * *

بسقدوره ان يصنّف حوانيت البقالة التي مر بها الى صنفين • الاول: بأبواب مشرعة ، لكنها خاوية ، والثاني : بابواب حديدية متينة ذات اقفال كبيرة لا قبـل له عليهـا •
والشياح كبيرة ـ ليس كما عهدها ـ طرقات ، وازقة ، تلتحـم فتتفرع ، لتتغلغل اكثر واكثـر •
« هل يواصـل ؟! »
ولدى احد المنعطفات صدمه صوت آمر :
ـ قف !
فتسمّر في مكانه • المفاجأة • الفزع • وموجة من البرد تجتـاح

عموده الفقــري •

ــ ارفع يديــك !

فيمتثل مبــاشرة •

ــ مــن انــت ؟!

ــ انــا •••

قبالته يقف شاب فدائي مسلـّح برشاش • الخوف يبدأ طريقه الــى الانحسار • ذراعاه ترتخيــان قليــلا •

ــ جئت ابحث عن مــاء للشرب !

الآخر يتفحصه بريبة • ذراعاه تتصلبان ثانية • الخوف •

ــ •• في سردابنا اطفــال !

ــ •••••

غصـّة بكــاء تتجمـّع فــي حنجرتــه •

ــ منذ يومين •• ونحــن ••

فقاطعــه الشــاب :

ــ تعــال !

* * *

قال له الشاب وهو يسلـّمه القنينة البلاستيكية الممتلئة بالماء :

ــ اقتصدوا باستعمالهــا !

ــ حاضر •

اجاب اسعد بلهجة عسكري منضبط ، اعتاد علــى تلقــي الاوامر وتنفيذها • فتلوّن صوت الشاب بحسّ ودي مصارح :

ــ الاشتباكات ــ على الاغلب ــ ستتوقف هذه الليلة •

ثم ابتسم مطمئنا ، واضاف :

ــ •• لكن الاحتياطات ضروريــة •

الامتثال الرفاقي في صوت اسعــد :

ــ حاضر •

* * *

وهما يبدآن سيرهما سأله الشاب :

ـ اين تسكـــن ؟
ـ في الطرف الاخر .
قال اسعد ، وشحن صوته :
ـ .. قبالة عين الرمانـــة .
الاهتمام يظهر على وجه الشاب .
ـ قد تتعرض للخطـــر !!
فابتسم اسعد بارتياح مفاخر ، وسعور بالنديّة يملأ جوانحه .
ـ ياما تعرضت !
ـ صحيـــح ؟!
تساءل الشاب من غير مبالاة كافية ، في الوقت الذي كان فيه اسعد بصدد الاسترسال متحدثا عن العملية التي خطّط لها ، ونفذّها تنفذا دقيقا كاملا ، بمشاركـــة رفاق ثلاثة ، لم يبخلوا عليه ـ وهو القائد ـ لا بالجهد ولا بالتضحيـــة .
وعلى الرغم من الاحباط النفسي الذي تعرّض له ، قرر اسعـــد ان يفتح صدره للشـــاب .
ـ قبل ليلتيـــن ...
لكن توقف الشاب عن متابعة السير .
ـ آسف !.. لا بد من افتراقنا هنا !
الجم لسان اسعد للحظات ، تمتم بعدها بخذلان بيّن :
ـ لا بـــأس .
الشاب يبتسم بودّ .
ـ كن على حـــذر !
ـ حاضر .
قال مضطرا ، وتابع سيره زامّا شفتيه على احساس دخيل بالنقمـــة مـــن الوضـــع عامّـــة .
« الحـــرب ! .. تفو ! »

٧

ما ان وصل شارعهم حتى فغر فاه دهشة ، ووقف مأخوذاً .

السنة النيران ـ التي كان قد رآها تنبعث من النوافذ العليا للمبنيين المجاورين لسكنهم ـ ازدادت عتواً وعلواً ، فبدت وكأنها مشاعل هائلة وضعت خصيصا ـ في اعلى المبنيين ـ بقصد انارة الشارع ... الظلال تتراقص ، والضوء ...

تذكّر فيلما سينمائيا شاهده قبل سنوات « آخر ايام بومبي » . « البركان ينفجر . حممه تغرق المدينة . النيران تنتشر في كل مكان . الليل نهار احمر مشتعل .جحافل الناس تزدحم على رصيف الميناء . الاضطراب . الصراخ . السفن » .. النيران ـ الان ـ اقل حجما ، لكن اسعد وحده .

هذا الشارع ـ كما هي حال الشوارع الاخرى ـ مقفر تماما ، والنافذة البعيدة لغرفة الخدمة ...

ركّز بصره على البعيد . لم ير شيئا .

بيد انهم هناك . اثناءمغادرته السرداب اطلقوا النار عليه . الآن سيرونه بوضوح اكثر لحظة اجتيازه . سيحددون هدفهم « ـ هو ـ » بدقة ، وسيطلقون ، ولا فرق في ان يظل مختبئا او لا يظل ، فالنيران ستبقى مشتعلة ، وستزداد . « لا رجال مطافيء » ، كذلك فان عطش الطفل « ابن ابراهيم » سيزداد . الحل الوحيد ..

وتداعت في ذهنه كلمات بولص :

ـ انحن قدر الامكان . اركض باسرع ما تستطيع ، وبخط متعرج.

وما أحس" بالغصة في فمه . وضعه الخاص شغله عن استعادة ما حدث عند سور حديقة الكنيسة .

* * *

الظلال ــ عملاقة ــ تتراقص ، والنيران .. الصق ظهره بالجدار ، وحدد بصره في نافذة السرداب عبر الشارع .

ترى ... هل هم يراقبونه ؟! .. وهذا الاعياء الغريب الذي يحسه في ركبتيه لا يمكن ان يكون بسبب الخوف !!

ــ جميلة !!

صرخة مفاجئة صدرت عنه . خيل اليه ــ في البدء ــ ان صوته غريب على اذنيه .

الليل . الظلال . النيران . وحده ، كما في كوكب آخر يشتعل ، لكن صوتها العاتب .. المشارك .. المنبعث عن ظلام النافذة .

ــ لماذا تأخرت ؟!

بدد احساسه الخانق بالتوحد ، وسرت في جسده موجة دفء . هم بانتظاره .

اطبق اصابع كفيه على عنق قنينة الماء ، ودفع الجدار بظهره ، بكل ما لديه من عزم وتشبث بالحياة .

* * *

« حدست هذا !! »

طلقات المدفع الرشاش تئز" من حوله وبين قدميه .

ــ قتلة !!

صرخة عاتية انطلقت من فمه ، وبذل مزيدا من الجهد كي يركض باسرع ، لكن ضربة هائلة هادئة خارقة القوة فاجأته على خاصرته .

« لا !! »

كلمة خاطفة انفجرت ــ لا اراديا ــ داخل رأسه ، وانقذف في الهواء .

* * *

لم يشعر بالارض وهي تصدم ظهره بقوة • كان قد فقد وعيه للوهلة الاولى ، وعندما افاق بعد لحظات خيّل اليه ان صوتا ما واهنا ، مفجوعا ، يناديه من على بعد سحيق :

ــ أسعد !!

حاول ان يركّز افكاره • خدر كريه حادّ يتنمل في اطرافه ، ودواز عنيف ــ يبعث على الغثيان ــ يجتاحه • فتح عينيه • الغثيان يبدأ انحسارا متباطئا • السماء صفراء •• تدور • مال برأسه جانبا • المباني صفراء •• تدور • السنة النيران صفراء •

ــ اسعد !!

الصرخة الواهنة تتردد في البعد السحيق • الاجهاد •••، وجفناه ينطبقان غصبا عنه •

الغثيان • الغثيان • امعاؤه تتلوى • تتخبط • تصطرع • فحبس انفاسه ، ليفتح ــ بعد جهد شاق ــ جفنيه • اللون الاصفر • المرئيات تدور • والغثيان يعاود انحساره التدريجي ، المتباطيء •

« اين انا ؟! »

سؤال مندهش ، مهزوم ، ينبعث في ذهنه ، وصيحة واهنة بعيدة ، تلحّ عليه •

ــ اسعد !!

فتشتتت قدرته على تركيز افكاره •

« اللعنة !! »

رويدا رويدا تواردت الصور •• الطريق • العبور • قنينة الماء • السرداب •

« قذيفة ؟! •• أم رصاصة ؟! »

تذكّر خاصرته • فكّر بتحريك يده •

« أ أ •• »

فرحة صغيرة • يده تطاوعه • تتحرك ــ على الرغم من بطئها ــ باتجاه خاصرته • نبع من سائل ساخن يتدفق ــ لزجا ــ بين فرجات اصابعه •

« دم ! ! »

وداهمته رغبة عنيفة جيّاشة لان يبكـي

« قتلونـي !! »

الاختناق في صدره • في حنجرته • في فمه • وتشنّجت عضلات فكيه • بكـى بحرقـة طاغيـة •

***

الصوت الواهن يتردد :

ـ أسعـد !!

والدفء ـ مع جهد البكاء ـ يتسرب من جسده••الاحساس بالبرد• الحياة هي التي بدأت تتسرب من جسده •

« لا !! »

وكفّ عن البكاء • صرّ على فكّيه • الدفء يكف عن التسرب •• شيء غريب ان لا يشعـر بالالـم !

الخدر يزحف من اطرافه صعودا الى الجذع • مع الخدر تملكـه احساس جديد بالسكينة ، فصفا ذهنـه •

« الملحمة الشعرية بحاجة لاعادة نظر جذريـة !» وشعـر للمـرة الاولـى بأنه فلسطيني ، ليس كما كان في نابلس او عمان • او بيروت •

« المقاومـة ••• انا بحاجـة ! »

ـ أسعـد !!

صوت جميلة يصله قريبا وواضحا •

« فجعت باصابتـي !! »

ببطء شديد ادار رأسه باتجاه مصدر الصوت • المرئيات ـ علـى بُعد امتار منه ـ تتداخل ، تمتزج ، وعلى البعـد الاقرب •• « قنينـة المـاء !! »

ـ أسعـد !!

« متى تفهـم ؟! »

وبذل جهدا جبّارا كي يحرّك يده مشيرا •

٨

ضوء الحرائق ينفذ داخـل السرداب • ظـــلال النسوة الاربــع المتزاحمات عند النافذة تتراقص على الجدران •

ــ هو لــم يمت !

قالت زينب ، ولم يجد قولها صدى لدى الاخريات • جسد أسعد مسجى في الطريق ، على مسافــة امتار قليلة •

ــ قبل قليل رأيت يده تتحرك !

ــ •••••

قنينة الماء مسجاة غير بعيد عنـه ، والراديــو الترانزستور الــذي نُسي الى جانب العمود •••

* ايها الاخوة المواطنون ••• بعد دقائق فقط نذيع عليكم خبرا مصيريــا هامـّــا •••

عويل الطفل يــزداد ارتفاعا •

ــ أسعــد !!

ما كانت جميلة قد كلـّت من الصراخ بعد ، وصيحة فرح مندهش تصدر عــن فائزة :

ــ انظرن الى يده !!

السنة النيران كانت قد تعالت فجأة •• الرؤية بوضوح اكثر ،وذراع

اسعـد ترتفع لترسم ظلالا طويلة متراقصة على ارض الشارع .
ـ صحيـح !
اصابع جميلة ترتخي من على حديد النافذة . تنسحب . تتهالك على الارض معوّلة بسعادة جامحة ورافضة في الوقت نفسه .

***

ـ يده تشير الينـا !
هتفت فائزة ثانية ، واجابتهـا زينب باقتناع واثق :
ـ انا رأيتهـا منذ قليل أيضـا !!
الفرح الغامر الذي عمّهن بعث الاضطراب ـ جليّا ـ في نفوسهن .
ـ هو بحاجة لمساعـدة !!
قالت مارسيل دون ان تحوّل عينيها عن الشارع ، فجمّعت فائـزة جرأتهـا ، وتطلعت فـي وجه امها .
ـ انا اخرج اليـه !
ـ .....
وردّا على الصمت الحائر لزينب استـدارت مارسيل ، وواجهت فائـزة .
ـ وحدك لن تفعلي شيئـا !
ـ لكـن ...
وتنقل نظراتها ـ حائرة ـ ما بين وجه امهـا ووجـه مارسيل ، فتستطـرد الاخيـرة :
ـ يجب علينا ـ قبل كل شيء ـ ان ننقله الى هنا .
وعندما جوبهت بصمت مصغ أتمت :
ـ لو خرجنا اليه هكذا لتعرضنا بدورنا للرصاص .
الصمت المتثل يمتـد .
ـ ... نزحف اليه ، ثم نسحبه معنا بهدوء .. تلك هي الطريقـة الاسلـم .
التصميم يتجسّد في قسمات وجه زينب ، وفي اللهجـة المتحمسة لفـائزة :

ـ هيـا بنـا !!

***

زخم الشباب واندفاعه هو الذي أوصل فائزة الى جانب اسعـد ، قبل كل من زينب ومارسيـل .

جميلة ـ التي لم تزايلها نوبة البكاء الهستيري مزايلـة تامـة ـ لازمت ـ وبسبب من جرحها ايضا ـ عنـد المدخل، بنـاء علـى امـر من مارسيـل .

ذراع اسعد ما زالت ـ مستندة الى كوعها ـ مصلوبة في الهواء . أرهفت فائزة اذنيهـا .

تنفس أسعد اشبه بشخير غير منتظم . يعلـو ليكفّ ، ثم يعلـو بأشـدّ .

رعدة فزع تجتاح جسدها . تعضّ باسنانها على شفتهـا . ترهف اذنيهـا لثـوان .

الشخير يتحول الى غرغرة كريهة . الـذراع المنتصبـة تسقط . جسم اسعد ينتفض . أطرافه تتشنج . ترتخي .

السكون . وريح خفيفة رطبة تهبّ . السنة النيران تتعالى . الضوء ينتشر والظلال ، ثم اطلاقة رصاص واحدة بعيدة بصدى عال .

التفتت ناحية المرأتين . المرأتان تكفّان عن الزحف . واتتها فكرة . ما كانت قد عايشت المـوت .

« لعلـه لم يمت ! »

فزعها يصطرع مع اصرارها . يجب عليها ان تتأكد : « اسعـد لا يزال حيّـا »

اطلاقة اخرى في البعيد .. تجمّد جسدها لحظات . السكـون . وزحفت خطوة . جسم اسعد يكاد يلامسها . رفعت رأسهـا . أمالته . الصقت اذنها بصدره . الصمت . رفعت رأسها . اطلاقة ثالثة . اعقبتها على الفور رشقـة سريعـة من مدفع رشاش . أزيـز حـاد ينبعث عن الاسفلت بالقرب منها . عليهـا ان تبدأ زحفها عائدة .

رشقة اخرى من المدفع الرشاش ، واحست كما لو انهـا تعرضت لركلـة عنيفـة في ظهرها ، وشيء ساخن جدا ـ كمثل جمرة الفحم ـ ينفذ في لحمها ، فالتفتت غير مصدقة . لا احـد يقف خلفهـا . الركلـة الثانيـة بأقوى ، فتداعت .

***

من داخل السرداب ، وغير بعيد عـن العمـود ـ حيث الراديو الترانزستور ـ انبعث صوت المذيع فرحا مستبشرا :

* ايها الاخوة المواطنون :

اليكم هذا النبأ الذي انتظرتموه طيلة ايام المحنة .

صمت قصيـر .

* تمّت قبل دقائق مراسيم تشكيل الوزارة . وزارة الانقـاذ الوطني ، كما سبق واطلق عليها السيد الرئيس المكلّف ، وسنوافيكم بعد قليل بتفاصيل كاملة حول توزيع الحقائب الوزارية .

تذييـــل

... وانت تترك شارع الحمراء متابعا سيرك غربا حيث تبدأ الارض انحدارهــا التدريجي يطالعك البحــر الابيض ازرق ، معانــدا ، كبيرا ، ممتدا بامتداد الافق .

احساس صغير يفرض نفسه عليك : « هذا البحر لا يبالي بكل الذي يجري فــي الداخــل »

وعندما تهب على وجهك نسماته برطوبتها ونداوتها ، حاملة رائحــة الماء والسمك ، قد يفامرك الشك في حقيقــة ما يسمى صخرة الانتحار : « أنَّى لمتانة الطبيعة هذه ان تُشجِّع انسانا ما على قتل نفسه ؟ ! »



ولعل وجود البحر من جهة ، وبسبب من كون منطقة الروشة سياحية قبل كل شيء من جهة اخرى ، هــو الـــــذي نأى بها ان تكون مسرحا للاشتباكات التي تعاني منهــا مناطق بيروت كافة .

لهذا السبب وذاك ــ وفي الاماسي على وجه الخصوص ــ كنت ترى شلــلا صغيرة مـــن السوّاح ، السعوديين ، والقطريين ، والكويتيين ــ بسياراتهم الفارهة ، المعدودة ــ يتنقلون ببطء عبر مسافة لا يعدو طولهــا الكيلومترين . يسعى كل منهم لئلا يتعرف على الاخر ، دون ان يفلتوا فرصة احساسهم بأنهم ما زالوا يصطافون . وفي لبنان بالذات .

للمؤلف

البقعـة الداكنـة	قصص	طبعة اولى	١٩٦٥
كانت السماء زرقاء	رواية	طبعة اولى	١٩٧٠
المستنقعات الضوئية	رواية	طبعة اولى	١٩٧١
		طبعة ثانية	١٩٧٣
الحبـل	رواية	طبعة اولى	١٩٧٢
الضفاف الاخرى	رواية	طبعة اولى	١٩٧٣
ملف، الحادثه ٦٧	رواية	طبعة اولى	١٩٧٤
الاقفاص واللغة المشتركة	قصص	طبعة اولى	١٩٧٤
الشيّاح	رواية	طبعة اولى	١٩٧٦

على الحائط

كتابة بالطباشير

« هم يريدون الحرب »

والذي كتبها

سقط صريعاً ...

« بريخت »

دار الآداب

الثمن ١٢٥ ل. او ما يعادلها